
3 me Année, No. 98.

Lundi-20-5-1935

بدل الاشتراك عن سنة

صـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ٩٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ صفر سنة ١٣٥٤ — ٢٠ مايو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

هو ذا الربيــــع !

للآنسة النابغة «مىّ»

الربيعُ الربيعُ ، هوذا الربيع !

فى قَمَرِ الأسحار ، فى انبلاج الأسحار

فى مرح الأطيار ، فى عبير الأزهار

فى النهارِ الدوّار ، فى الأصيل البديع !

الربيع الجديد ، هو ذا الربيع !

* * *

أنا القلب السعيد ، وهو ذا الربيع !

فى سويدائى يحتجبُ الوجهُ المحبوبُ دواماً

وراقهُ أن يستهلّ مشرفاً على البريّة ، فانقلبتْ قبةُ الفلك محراباً تلألأ فيه طيفٌ من بهائهِ ، وفى مدى الأبعاد شاعت بهجةٌ تعكسُ شيئاً من حلاوة ابتسامته وفيض سنائه . وانبرى الربيع يُزجى آيات التسبيح والتهليل بأشكالهِ وألوانهِ ، لأنهُ اقتنص لمحةً من ذلك الوجه ، فتنضحت مجاليه برونقهِ واتـزرت بروائه

وتجمدت الأزمان فى لحظة ، فهى أبديةٌ آبدةٌ تُخلّد حبورى

فهرس العــــدد

٤٠٥١

والوجود كلّه هالةٌ تحيطُ بالوجه الفريد الدافق
وخوالجي حيال الوجهِ وهالتهِ نبضٌ للوجودِ وترتيل :
« أنت مرتع هيامي ، أيها الربيع !
« يا ربيعي النشوان ، أيهذا الربيع ! »

* * *

أنا الحدائق والرياض ، وهو ذا الربيع !
أرواحُ الأحبابِ والخلّانِ متجمهرةٌ في رحابي
معارضُ الوشيِ والزركشة نضيدة ، ومتاحفُ اللمانِ والاشراق عديدة ؛
الأشجار تكلّلها تيجانُ الظلال والأنوار ، وفيالق الغصونِ خاشعةٌ كأنها في حضرةٍ ربّانية ؛
والمرئيات كلها على ارتقابٍ وانتظار ، تتوقعُ نبأ خطيراً قد يكون إفصاحاً عن بعض ضمير الأكوان .
أقُضي الأمرُ ففُزتِ ، يا أخواتي الكائنات ، بما كنت تتوقعين ؟
سيّالٌ من ذوبِ النصر والابتهاج يدفقُ علينا ، وكأنّ كلّ ما ترامى في الأمكنة من مراجع الألحان يتلخّص في حضني نشيداً :
« شتيت الأجزاء وحدة واحدة ؛ أيها الربيع !
على طُور حسنك نتجلّى معكَ ، أيهذا الربيع ! »

* * *

أنا الينبوع الصافي ، وهو ذا الربيع !
ظليلةٌ تحنو الشجرةُ عليّ ، وأنا في فيئها الحنونِ جاثم .
بلوريّة الجلبابِ بلوريّة الرنينِ تتلاحقُ مياهي ، وقد أودعها الربيعُ لاعجَ الشوقِ ووصبَ الحياة ؛
وفي مترنّحِ أسجوعتها نداءٌ وإغراء ، ونمومةٌ واستعطاف ، ووعدٌ ووفاء ، وثقة ونوال .
مياهي تفضّضُ الحصى وترطب الأعشاب والأدغال ، في جريها الحثيث الى حيث لا تدري . هي تتوقُ الى رشيدِ السخاء كيلا تحسب ولا تدّخر .
وتتوالى الساعات فلا يتفيّأ شجرتي شريدُ الهجير ، ومرآتي المتثنّية لا ترسمُ وجه المرتويّ الشكور !
ليس من عابر ، غير ذاكَ الذي أخذ منى ما أخذ ليقذفني بالأحجار ، ويترك منهُ تذكاراً ، اللمنة والأقذار !
اليأسُ خالط صفائي ، والكآبةُ حلت في مياهي !
وبتُّ أحلمُ بالذين طوّحت بهم السبلُ فهاموا في القفر عطاشاً ، بينا مدرار أجاجي يناديهم وينطقُ باسمهم جزافاً !
ولامستّني مؤاسيةً في الظلام الأفنانُ ، فاستحالت مياهي عبراتٍ وغدا نشيدي شهيقاً وانتحاباً :
« الربيع الحزين الحزين ، هوذا الربيع !
« ربيع الجحود والهجران ، كيف احتملُ الربيع ؟ »

* * *

أنا الصحراء القحطاء ، وهوذا الربيع !
الصحراء الواجمة الكتوم ، كذلك كنتُ وكذلك أكون !
أللحياة صورٌ وأشكال وسنن ؟
أفي الحياةِ ولادةٌ وموت ؟
أفي الحياةِ تبديلٌ وتحويل ؟
أفي الحياة نموٌ ونشوء وازدهار ؟
مهٍ عن الصحراء ، أيهذا اللغو السقيم !
أنا مملكة العيّ والبكم والصمم والعمى !
أنا منطقة السآمة الآيسة والغليل القتّال !
مائي سراب ، وظلّي تراب ، وسبلي أقاويه ، وملامسي لوافح وسموم ، ومعالمي مجاهل الفاوز ، وألجاج الأهوال .
إني في ربدتي ومحلي حجةٌ رهيبة على إجحاف الأقدار ،
الأقدار التي تعاقب بلا ذنبٍ وتغرّم بلا سبب ، وتبتاعُ خصب المروج بعقمي المقيم
أنا في قحطي الفروض وسكوتي المستمرّ ، أسيرةُ الوحدةِ والانزواء .
أنا في رحاب الأرض حبيسة .
أنا تزددُني الرمال على الدوام ، فأنّى لي أن أعول :
« ليس لي الربيع ، ليس لي الربيع !
« ربيع الرمال والسعير ، ما حاجتي الى الربيع ؟ »

* * *

هوذا الربيع ، هوذا الربيع :

٤ ـ الانتحـــار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيِّب بنُ رافعٍ : ومدَّ الامامُ عينَه وقد رُفِعَ له شخصٌ من المجلس ؛ ثم جلّى بنظره كأنما يتطلّع إلى عجيبةٍ كالحق إذا بَطَل ، والصدق إذا كَذَب ؛ ثم ردَّ بصرَه علىَّ كأنه يُعجِّبني من عجبه ؛ ثم سَجَا طرْفُه كأنما أنكرَ رأيَ عينيه فهو يلتمسُ رأيَ قلبه . وتبيّنتُ في وجهه انقباضاً خُيِّل إلىَّ أن الشيطان جاءه بهذا الرجل يُفحِمُهُ به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمّسُ في دينه ليرجعَ بعد ذلك أصلاً لاغِنى عنه في إنشاء قصة كُفْرٍ !

هذا هو ضيفُنا (أبو محمد البَصْري) يَتَخَوَّضُ الناسَ ليجيءَ فيحدّثَنا حديثَه في قتل نفسه والأثم بربّه ؛ فلو قيل لي : إن قوسَ السماء بأحمرِه وأصفرِه وأزرقِه وأخضرِه ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً — لكان هذا كهذا في تعاظُمه وإنكاره والعجبِ منه ؛ فأبو محمد من الرجالِ الُحمْسِ (١) الذين لو كَفَرَ أحدُهم ثم قيل «إنه كفر» ، لقَصَّر اللفظُ أن يبلغَ الحقيقةَ أو يصفَ شُنْعتها ، كما يقصّر لفظُ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ، فلا يبقى في أرضٍ ولاسماء ولاتناله يدُ الله ! إن في لفظ الكفر مع ذاك ، وفي لفظ الجنون مع هذا — شيئاً من نفاق العقل وتأدُّبِه في أداء المعنى الأخرقِ الذي لا يُشْبِهُهُ جنونٌ ولا كفر

ونعوذُ بالله من خذلانه ؛ فلقد يكون الرجلُ المؤمنُ في تشدُّدِه وإيغاله في الدين — كالذي يصنع حبلاً يَفتله فتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاقٍ بعد طاق ، ليكونَ أشدَّ له وأقوى ، ثم يجاذبه الشيطانُ حبلَه ، فاذا هو كان في الوَهن مثلَ العنكبوت اتخذتْ بيتاً في سقف حدّاد ؛ فرأته يَصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حلْقةً في حلقة ، فذهبتْ تحكيه وتُرسِلُ من لُعابها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة . . . !

إن مع كل مؤمن شيطانَه يتربَّصُ به ، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كل ساعة كالذي يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ؛ فهو أبداً محترسٌ متهيءٌ متجدّد الحواسّ مُرهَفُها يستقبل بها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة ؛ ومن هذا حكمةُ أن يؤذّن المؤذّن وأن تُقام الصلاةُ مراراً في اليوم ، فكلما بدأ وقتٌ قال المؤمن : الآن أبدأ إعاني أطهرَ ما كان وأقوى

* * *

وقال الامام : هِيـه يا أبا محمد ! فقال البصريّ وقد رأى الكراهة في وجه الامام : لا يُفْزِعنّك أيها الشيخ ؛ فان الله تعالى قد يجعل ما يحبّه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجريَ على ألفاظنا ؛ وقد نُسمي النازلةَ تنزل بنا خَساراً وهي ربح ، أو نقولُ مصيبةٌ جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تيسرتْ لتبديل الفكر . إنما لغةُ القدَر في شيء هي حقيقةُ هذا الشيء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيّن من حادثةٍ لاتصيب امرأً في نفسه إلا لتقعَ بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها ، فتكونَ أعمالُ الطبيعة المادّيّة أسباباً في أعمال العقل المنتصر

(١) أي المتحمسين في دينهم

مغرياً في الفضاء ، فتاناً في الحدائق ،
بهيجاً في الألوان ، رشيقاً في الشقائق ،
طروباً في قلب الجذلان !
هوذا الربيع ، هوذا الربيع !
كئيباً في قلب المظلوم ، جريحاً في قلب المحروم ؛
شاملاً بعطفٍ نصفه قسوة ،
حاضناً برفق نصفه عنف ،
موحياً أملاً نصفه يأس ،
مذكياً خصباً نصفه قحل ،
حافزاً شباباً نصفه هرم ،
مجدّداً حياة نصفها ردىً !
الربيع الربيع ، لمن يكون الربيع ؟
الربيع الجديد ، هوذا الربيع !
الربيع العابر ، هوذا الربيع !

« مى »

وكثير من هذا البلاء الذى يقضى على الانسان، لايكون إلا وسائلَ من القدَر يردّ بها الانسان إلى عالَم فكرهِ الخاصّ به ؛ فان هذه الدنيا عالَمٌ واحد لكل مَن فيها ، ولكن دائرة الفكر والنفس هى لصاحبها عالَمُه وحده . والسعيد من قرَّ فى عالمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالملِك المطاع فى مملكته ، نافذَ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقىُّ من لايزال ضائعاً بين عوالم الناس ، ينظر الى هذا الغنىّ ، وإلى ذاك المجدود ، وإلى ذلك الموفق ؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذ كلُّ شىء يصبح أجنبياً عن الانسان مادام هو أجنبياً عن نفسه

لقد كنتُ ضالاً عن نفسى وعالَمِها ، فكنت فى هذه الدنيا أستشعر شعورَ اللص ، أشياؤه هى أشياء الناس جميعاً ؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعينىْ شاعرٍ متحبِّبٍ كَلِف ، وهى تنظر إليه بعينىْ مُقاتِلٍ متربِّصٍ حَذِر

كنتُ والله إن ضِقْتُ بالناس أو وسِعْتهم – رأيتُ فى ذلك معنى من ضيق اللص وسَعته ؛ هو على أىّ حالَيْه لاينظر فى أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلّل فى خشيةٍ وحذر !

وكنتُ نزِقاً حديدَ الطبع سريعَ البادرة ؛ ومَن فقدَ عالَم نفسه ، وكان فى مَثَلِ اللص الذى ذكرتُ — فان هذه الطباع تكون هى أسلحتَه يَدْفَعُ بها أو يَعتدِى . وما قطُّ تمكَّن إنسانٌ من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرُّفُه — إلا كان راضياً عن كل شىء ، إذ يتصل من كل شىء بجهته السامية لاغيرها ، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولاهؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها . وقد يكون عدوُّك فى بعض الأمور عيناً لك فى رؤية نفسك ؛ ففيه بَرَكةُ هذه الحاسّةِ ونعمتُها

ولو نحن كنا مسلمين إسلامَ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) ، وإسلامَ المقتدين به من أصحابه – لأدركنا سرَّ الكمال الانسانى ؛ وهو أن يَقَرَّ الانسانُ فى عالم نفسه ويجعلَ باطنَه كباطن كل شىءٍ إلَهى ، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمرُّ به إلى جهة الكمال ، المرتفعُ به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فتنظُرُ الانسانِ إلى نقص غيرهِ هو أولُ نقْصه . والمؤمن كالغصن ؛ إن أثمر فتلك ثمارُ نفسه ، وإن عَطَلَ لم يشحذ ولم يحسد واستمرّ يعمل بقانونه

ولقد نشأتُ فى مَغرِسٍ كريم ، على صورة من الحياة تشبه صورةَ الثمرة الحلوة ، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومَرْتَبتها ماتتميّن به من حلاوةٍ ونكْهةٍ ومذاق ؛ فلما عَقَلْتُ وعرفتُ الناسَ بعدُ جاريتهم وخالطتهم ، وأيقنُى منهم كالتفّاحة ملقاةً فى البصَل . . . وكانت التفاحةُ حمقاءَ فزادت حُمقاً ، وكانت حديدة فزادت حِدّة ، وظنّت أن الحكمة قد مَسَختْ فى الدنيا وبدّلتْ إذ خَلقت البصلةَ بعد أن خلقت التفاحة ؛ وما علمَتِ الحرقاءُ أن الكمال فى هذه الحياة مجموعُ نقائص ، وأن للجمال وجهين : أحدهما الذى اسمه القبح ؛ لايعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لوأدركتْ مايريد الناسُ من معناها ومعنى التفاحة لَسَمَّتْ نفسَها هى التفاحةَ ، وقالت عن هذه إنها هى البصلة !

ولما رأت تفاحتى أنها عاجزة أن تجعل الشجر كلَّه فى مثل مرتبتها ومغرسها — قالت : إن الأمر أكبر من طبيعتى ، ومادام سرُّ الكون مُغلَقاً فلا تعريف له إلا أنه سِرٌّ مغلَق ، ولْيبقَ كل شىء فى طبيعة نفسه ، فعلى هذا يصلُح كلُّ شىء ولو فى نفسه وحدها

* * *

قال أبو محمد : ولكن بقيتْ وحشةُ الدنيا وجَفْوتُها ، إذ لم أكن اهتديتُ إلى عالمى ، ولا تأكّدتْ عقيدتى بنفسى ؛ فكان كل ما حولى مُنْبَجِساً فى روحى بشرِّه ، وكانت الدنيا بهذا كالتطابقةِ فى رأيى على معنى واحد ، وزادنى أنى كنتُ رجلاً عَزَباً متعفِّفاً ؛ وما أشبَه فراغَ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ؛ هذا هو العقلُ البليد ، وتلك هى الرجولة البليدة !

والمرأة تُضاعف معنى الحياة فى النفس ، فلا جَرَمَ كان الخلاءُ منها مضاعَفةً لمعنى الموت ؛ عَلِمَ هذا مَن علِم وجهلَه مَن جهِل ، فكنت أعيش من الكون فى فراغٍ ميّت ، وكنت أحسّ فى كل ما حولى وحشةً عقلية تُشعرُنى أن الدنيا غيرُ تامّة ؛ وكيف تتمُّ فى عينى دنيا أراها غير الدنيا التى فى قلبى ؟

وعرفتُ أن كل يوم يمضى على الرجل العَزَب المتعفف لا يمضى حتى يبقى فيه مَرَضَ يوم آخر . ومن هذه الأيام المريضةِ المتهالكة ، تُعِدُّ الحياةُ انتقامَها من هذا الحيِّ الذى نَقض آيتها وافتات عليها ، وجعلَ نفسَه كالآلة لازوجة له ولا صاحبة !

وايمُ اللهِ إن الشيطان لا يفرح بالرجل الزانى وبالمرأة الزانية ما يَفرح بالرجل العَزَب وبالمرأة العزباء ؛ لأنه فى ذينك رذيلةٌ فى أسلوبها ، أما فى هذين فالشيطان رذيلة فى أسلوب فضيلة . . . !

هناك يُلِمُّ الشيطانُ ويمضى ، وهنا يأتى الشيطانُ ويُقيم !

وقد عشتُ ما عشت بقلب مُغلَق وعقل مفتوح ؛ وليتنى كنت جاهلاً مُغلَقاً عقلُهُ ، وكان قلبى مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !

ومضت أيامى يضربُ بعضُها فى بعض ، ويُعرِضُ بعضُها بعضاً حتى انتهت مُنتهاها ، وجاء اليوم المُدَنَّفُ الهالكُ الذى سيموت . . .

أصبحتُ فقلت لنفسى : كم تعيشين ويحك فى أحكام جسدٍ مُختلٍّ لا تَصدُقُ أحكامُه ، وما أنتِ معه فى طبيعتك ولا هو معك فى طبيعته ؛ ففيمَ اجتماعُكما إلا على بلائى ونكدى ؟

لم تصطلحا قطّ على واجب ولا لذّة ، ولا حلالٍ ولا حرام ؛ فأنتما عدُوَّان لا همَّ لكليهما إلا إفسادُ المَسرةِ التى تَعرِضُ للآخر . وما أدرى عمن يسخر الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذى يُوسْوِس باللذاتِ يتمنّى اقترافَها ، كالفاجر الذى يُواقعُها ويقتحمها !

ويحكِ يا نفس ! إنى رأيت هذه الدنيا الحرقاءَ لم تُقدِّم لى إلا رغيفاً وقالت : املأ بهذا بطنَك وعقلَك وعينيك وأذنيك ومشاعرك . آه آه ! مُمْكِنٌ واحدٌ معه أربعةٌ مستحيلات !. إن هذا لا يُلْبثنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى تُمسكنى على الحياة : الأمل والعقل والايمان والصبر

لقد استوى فى هذه الكآبة صغيرُ همِّى وكبيرُه ، وما أرانى إلا قد أشرفتُ على الهَلَكَةِ التى لا باقية لها ، فإن وجهى المتَكَلِّحَ المتقبِّض يدُلُّ منى على أعصابٍ مُحتضَرة نَهَكَتْها أمراضُها ووساوسها ، وإنما وجهُ الانسان فى قُطوبه أو تَهلُّلِه هو وجهُه ووجه دنياه تَعبِسُ أو تبتسم

وتالله لقد عجزتُ عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضةِ الواهنة ؛ فإن حِبالةَ الصَّيد ، صَيدِ الوحش ، لا تكون من خيط الابرة . . . ! وأرانى أصبحت كانسانٍ حجرىٍّ ليس فى طبيعته الالتواءُ الى عينِ الحياة ويسارها ؛ ويُخيلُ الىَّ من صلابتى أنى الأسد ، ولكنى أسدٌ من حجر ، لا تفرضُ قوّتُه الفرارَ منه على أحد !

* * *

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسى فى هذا الحِوار كالميّتة ، لا تجيب ولا تعترض ولا تُنكر ؛ وكنتُ أظنّها تُراودنى على الحياة أو تردُّنى عن غَوايتى ؛ فلأنى سكونُها جزعا ، وأيقنتُ أن الشيطان بينى وبينها ، وأنه أخذ عنافذها ، فأردتُ الصلاة فَتَثَقَّلتُ عنها ورأيتنى لا أصلُح لها ، بل خُيِّل الىَّ أنى إذا قمتُ الى الصلاة فانما قمتُ لأتهزّأ بالصلاة !

وجعل الشيطانُ يأخذنى عن عقلى ويردُّنى اليه ، ثم يأخذنى ويردُّنى ، حتى توهّمتُ أنى جُنِنْتُ ، وكأنما كان يريد اللعين بقيّةَ إيمانى يجاذبنى فيها وأجاذبه ، فلم ألبث أن مسّنى خبالٌ وألقيتُ هذه البقيّةَ فى يديه !

ثم أفَقْتُ إفاقةً سريعة ، فرأيت (المصحفَ) يرقبنى من قريب ، فعُذْتُ به وعطفتُ عليه وقلتُ له : امنع الضربةَ عن قلبى . بَيْدَ أنى أحسستُ أنه خصمى فى موقفى لا ظَهيرى ؛ كأنى جعلته مصحفاً عند زِنديق ، فكان كل إيمانى الذى بقى لى فى تلك اللحظة أنى ضعفتُ عن حمل المصحف كما ثقلت عن الصلاة ، فبقى الطاهر طاهراً والنجسُ نجساً

ولم تكن نفسى فىَّ ولا كنتُ فيها ؛ فرأيتُ الدنيا على وجه لا أدرى ما هو ، غير أنه هو ما يُمكنُ أن يكون معقولاً من تخاليط مجنونٍ تركه عقلُه من ساعة : بقايا شعورٍ ضعيف ، وبقايا فهمٍ مريض ، تَتصاغرُ فيهما الدنيا ويَتحاقرُ بهما العقل

فلما انتهيتُ إلى هذا لم أعقل ما عملت ، وكانت الموسى قد أصابت من يدى عِرْقاً ناشزاً مُنتَبِراً ، ففار الدّم وانفجر منه مثلُ الينبوع ضُرِب عنه الصخرُ فانشقَّ فانبثق

وتحققتُ حينئذ أنه الوتُ ، فنظرتُ فرأيت . . .

* * *

قال المسيِّبُ راوى القصة : وتجهَّم وجهُ الرجل فأطرق وسكت ، وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتةً عندما قال : « فنظرتُ فرأيت »

وارتجَّ المسجد بصيحةٍ واحدة : فرأيت ماذا ، رأيتَ ماذا ؟

وبعثتِ الصيحةُ أبا محمد فقال : رأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ أشرَفت من المصحف تنظر إلىَّ كالعاتبة ، وكان أوسطُها كالقمر الطالع ، لو تمثَّلَتْ آياتُ الجنة كلُّها وجهاً لكانتْه فى نضرته وبشاشته . وغمْغَمَتْ بكلمات لم أسمعْ منها شيئاً ، ولكن نظرَها إلىَّ كان يؤدِّى لى معانيها وكأنها تقول : « أكذلك المؤمن ... ؟ »

ثم غابت وتخلَّت عنى وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى ، كأنها نقائضُ تلك ، وأعوذ بالله من أوسطها ، لو تمثَّلتْ آياتُ الجحيم كلُّها وجهاً لكانتْه فى نُكْرِه وهَوْله ، وخُيِّل إلىَّ أن الوجهَ الأصفرَ منها وجهُ سُورةٍ من سُوَر المصحف ، ففكَّرت ، فوقَع لى مما قام فى نفسى من اللَّمحة أنها : « تَبَّتْ يَدَا أبى لَهَبٍ وتَبَّ . . . »

وطَمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيَّمتِ الدنيا ، فأيقنتُ أن آثامى قد أقبلتْ علىَّ ظُلْمةً بعد ظُلْمة ، والتمعَ شىءٌ أحمر ، فنظرتُ فاذا الدَّمُ يتخايل فى عينىَّ كأنه شُعَلٌ تتلوَّى ، فجزعْتُ أشدَّ الجزع ، وحسبتها طرائقَ ممتدَّةً لروحى تذهب بها إلى الجحيم

وماتت كلُّ خواطرى بعد ذلك إلا فكرةً واحدة بقيتْ حيَّةً تأكل فى قلبى أكلَ النار ، وهى : « كيف تجرأتُ فوضعتُ بينى وبين الله حُمْقِى ؟ »

* * *

ويقولون : إن أختى قد رأتْنى أتَشَحَّطُ فى دمى فصاحت ، وجاء الناس على صوتها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأْىٍ ما استطاع حبسَ الدم ، واحتال حيلته حتى أَنَفَ الجرحَ دواءً وضَمَدَه ؛ فجعلتُ أثوب نَفَساً بعد نَفَس ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . .

ثم طافت الحياةُ على عينىَّ ففتحتهما ، فاذا الأشياء تبدو لى وليس فيها حقائقُ ولا معانٍ ، كأنها تَتَخَلَّق جديدةً تحت بصرى ، وكأنها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

وتماثلتُ شيئاً بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسى قد رجعتْ إلىَّ ساخرةً منى تقول : كيف رأيتَ عَمَلَ العقلِ أيها العاقل ؟

وبدأتِ الحياة تتجدَّد ، فأقسمتُ بينى وبين نفسى أن أجدِّد إيمانى بالله . ولم أكد أفعل حتى أحسستُ كأن قوَّةَ الوجود كلَّها مستقرَّةٌ فى روحى ، وخُيِّل إلىَّ أنى أنا وحدى القوىُّ على هذه الأرض قوَّةَ جبالها وصخورها ، على حين كان جسمى ممدَّداً كالميِّت لا يتماسك من الضعف !

فأيقنتُ حينئذٍ مالم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قطّ فى الحياة ولم يأتنى به علمٌ ولا فكر : أيقنتُ أنها مُعجزةُ الايمان الجديد الغضّ ، المتَّصِل بالله لتوِّه كايمان الأنبياء دون أن تلمسَه شهوة ، أو تعترضَه خاطرة ، أو تكدِّرَه ذرَّةٌ واحدة من فكرٍ أرضىٍّ دَنِس

* * *

قال المسيب : ثم جلس المتحدِّث ، وكان الناس فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعةً ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلِ إيمانه ؛ فسكتِ الامام ولم يتكلم ، ليدعَ كل نفسٍ تكلِّمُ صاحبها

(للمجلس بقية) (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

شم النســـيم

في مركز بوليس!

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

اشتهيت مرة أن أخرج إلى الظل، ورقاق مفيضة معشاب، وأن أجلس تحت شجرة عظيمة تميل عليّ أفنانها من الري واللين، فقلت لصاحب لي: «إني في أرض واسعة سهلة، ولكني كرهت مقامي بها، وأضجرني منها أني لا أرى في فضائها الرحيب عوداً نابتاً، ولا أسمع إلا صوت الرمال وهي تجري على رمالها وتوقع بعضه على بعض، وغداً شم النسيم، فتعال بنا إلى ناحية من الريف قريبة من بعض أرباض المدينة، وعسى أن أحمد بقعة في طريقنا، فأنزل بها وأسكنها، فقد اجتويت الصحراء كما قلت لك، وما أظن بي الا أن الحنين اليها سيعاودني، ولكن البمدعنها سنة أوسنتين، يكون كالاستجمام، فماقولك؟»

قال: «وتخرج في شم النسيم؟»

قلت «: ومالي لا أفعل؟ أهو حرام — عليّ وحدي؟»

قال: «لا، ولكنه يوم تكثر فيه العربدة، وأولى بك أن تلزم دارك — كعادتك»

قلت «: يا أخي، الله يوسع لي في الأرض، وأضيق على نفسي! كلا، ولن نعدم مكاناً ننأى فيه عن ضجات السكارى والمعربدين، فاختر لنا مكاناً، وتوكل معي على الله»

فاختار «المرج»

***

وحملنا معنا كفايتنا من الطعام والشراب، وكنا أربعة — أوخمسة، لا أذكر — وركبنا قطار الزيتون وكان كالحمار النهّاق البليد، يمضي ويتوقف، ويميل هنا وههنا، ولا يزال يصلصل، كأنما يقطع أرضاً أو يصنع شيئاً يستحق هـذه الضوضاء، وأنا امرؤ خلقني الله أكره التثاقل والاسترخاء، وأحب أن أفرغ مما أكون فيه بأسرع ما أستطيع، فمشيي قفز، وأكلي لَقْم، وكلامي لغط، وخطي أشبه بما تتركه أرجل الدجاج على الرمل، من فرط العجلة؛ ولا صبر لي على دلال امرأة، ولا أعرف التمهيد لشيء؛ فانه لف أو تطويل لا موجب له؛ وما أكثر ما أحببت، وما أسرع ما سلوت، وكم قلت لامرأة: «يا صاحبتي لقد أحببتك، ولكني لم أحبك ليَوْجعَني رأسي وقلبي، فان كنت لا تحسنين إلا تصديعي وتنشيف ريقي، وإلا هذا الذي تسمينه دلالاً، فلا يا ستي ويفتح الله عليك بغيري» وأدعها وأمضي، ولا أعود بعدها إلى ذكرها. وما أكثر ما قلت لنفسي: «ما هذا يا مازني؟ إني أرى حبك قد طال ساعات، وهذا شيء يُمل ويُسئم، وليس معقولاً أن تحب غائباً كأنه حاضر معك! نعم معقول أن تحبه ساعة يكون إلى جانبك، ولكن بعد أن يمضي عنك أو تمضي أنت عنه، لا يُقبل منك أن يظل قلبك يتلفت اليه ويُشغل به عن سواه»

فتقول نفسي: «أي والله، صحيح»

وأستلقي على سريري وأغمض عيني، وأنام، ثم أقوم وقد نسيت حتى اسم من أحببتُ. لهذا قلت لأصحابي «يا رفاق! ما قولكم؟»

قالوا: «ماذا؟»

قلت: «نترل من هذا القطار ونذهب نعدو إلى جانبه»

فضحكوا ولم يسمعوا مني، ولكني كنت واثقاً أني استطيع أن أسبقه على الرغم من عرجي؛ ونزلنا في «المرج» فلم نجد شجرة نجلس في ظلها، ولا جداراً يقينا وقدة الشمس، ولم نلمح في الأفق البعيد شيئاً يغري بالأمل، فقلت: أرجع إلى صحرائي فهي بي أرفق من هـذا المرج فان لي فيها على الأقل بيتاً آوي اليه، والذي لا يرضى بالخوخ يرضى بشرابه

وإنا لكذلك وإذا بضابط يقبل علينا ويحيي واحداً منا، ويسأله عما جاء به، فيخبره أنه جاء معنا، ليشم النسيم، ولكنا لا نجد مكاناً ظليلاً نميل اليه، فيقول الضابط الكريم: «تعالوا عندي»، فنسأله «عندك أين؟ فانا لانرى بيتا ولا كوخاً» فيقول: «في مركز البوليس، فاني ملاحظ النقطة!» فينظر بعضنا إلى بعض وأقول: «نشم النسيم في مركز البوليس! هذا جديد!»

وترددنا، ولكنه ضابط بوليس، وتحت أمره قوة كافية لارغامنا، فقلنا: «لا بأس! هي تجربة جديدة فلننظر ماذا عسى أن تفيدنا من المتعة؟ وما يدرينا؟ لعل مركز البوليس خير مكان نقضي فيـه يومنا! وما نظن أن أحـداً جرب ذلك من قبل، فهي ميزة ننفرد بها ونستبد»

ودخلنا المركز ، فدبت أقدام الجنود ، وارتفعت أيديهم إلى رؤوسهم بالتحية ، وتحركت عيونهم دون وجوههم ، وجعلت تنظر إلينا وتتبعنا ونحن داخلون ومعنا السلة فيها الطعام والشراب ، وصعدنا إلى غرفة فيها مائدة من خشب غير منجور ، وحولها كراسي ثقيلة ، وأنا نحيف هزيل ، يقول أحد الأطباء في وصف جسمي إنه شبكة من الأعصاب تحملها طائفة من العظام ، وتكسو هذه وتلك طبقة رقيقة من الجلد ، ولا لحم لي ولا شحم فأحتمل الجلوس على هذه الكراسي الناشفة ، ولكن ما حيلتي ؟

وجاءونا بأطباق وملاعق وسكاكين وأشواك وفوط ، فسألت الضابط :

« من أين لكم هذا ! »

قال : « ماذا تظن ؟ »

قلت : « أظنكم أخذتموها من اللصوص الذين وقعوا في قبضتكم »

قال : « أو لعلنا سرقناها ؟ هيه ؟ »

قلت : « كل شيء جائز في هذه الدنيا ! ومتى صار جائزاً أن نشم النسيم في مركز البوليس ، فكل شيء بعد ذلك هين ومقبول ومعقول »

وكان الجنود كلما دخلوا علينا بصحن أو قلة ، أو كوب أو فنجان ، يدبون بأحذيتهم الضخمة الثقيلة ، ويحيون ، ويضعون ما في أيديهم الأخرى ، ثم يعودون إلى التحية والدب بالأرجل ، ويخرجون ، وتكرر ذلك منهم ألف مرة ، فقلت للضابط :

« ألا تعفيهم من هذا التكليف ؟ »

قال : « إنهم جنود وقد ألفوا ذلك فليس في وسعهم إلا أن يفعلوه »

قلت : « لو لم تكن معنا لما تكلفوه »

قال : « ولكني معكم »

قلت : « إذن فأعفنا نحن ، فإنه إزعاج »

فسأل : « كيف أصنع ؟ »

قلت : « والله لا أدرى ! هل تستطيع أن تختبيء تحت المائدة حين يدخل منهم واحد ؟ »

وأكلنا هنيئاً ، وشربنا مريئاً ، ولم تمنعنا هذه التحيات والدبات أن نضحك ونمزح ، ولم يحل شعورنا بوجودنا في « مركز البوليس » دون التبسط والمرح ، واحتجت بعد ذلك أن أنام دقائق ، والنوم من عاداتي بعد الغداء ، فاذا حرمته حرمت الراحة ، وتفتر جسمي ، وغاض معين نشاطي ، وساء خلقي ، وانقلبت مخلوقاً شرساً مشاكساً ، وشريراً مجرماً ، تقذف عيناه بالشرر ، ومن أجل هذا تتخذني زوجتي هولة تخوف بي الأطفال والخدم .

فاذا رأت أني لم أنم بعد الظهر ، أقبلت تقول :

« تعال ! »

فأقول : « إلى أين ؟ »

فتقول : « تعال خوّف الأطفال ، فانهم لا يريدون أن يسكنوا ! »

فأقول : « ياسيدتي ، إن التخويف شر أساليب التربية »

فتقول : « دع هذه الفلسفة وقم ، فقد كاد رأسي يطير من ضجتهم ؛ ثم إن عند الجيران أطفالاً كثاراً يصيحون ، فأخرج لهم وجهك من النافذة يخرسوا ، وفي الشارع رجال يتشاجرون فاذهب اليهم واطردهم إلى شارع آخر »

فأهز رأسي وأقول : « تالله ما اشتهى إلا أن أخوفك أنت ! » ثم أنهض آسفاً ، وأصدع بما أمرت ، فيهدأ البيت ويسكن الشارع ، ويخفت كل صوت حتى صوت الترام ، فينشرح صدرها وتقرعينها ، وتتنهد مسرورة ، وتقول : « ليت أنك لا تنام بعد الظهر أبداً ! »

فأسألها : « أتكرهين لي الراحة ؟ »

فتسألني مغالطة : « أتكره لي أنت الراحة ؟ »

فلا أجد جواباً حسناً ، وأسألها : « هل أستطيع أن أنام الآن ؟ »

فتقول : « وإذا قامت ضجة جديدة ؟ »

فأقول : « اطمئني . . . وفي وسعك دائماً أن توقظيني لهم »

فتذهب تصف وجهي معجبة بما يكون مرتسماً عليه من مظاهر الافزاع وبواعث الرعب ، مباهية به وجوه القتلة والسفاحين وقطاع الطريق ؛ ولكن هذا استطراد ، فلنرجع إلى ما كنا فيه من شم النسيم

كان لا بد أن أنام ، فنمت على كرسيين ، حططت نفسي على واحد ، ومددت ساق على الآخر ، ولم يكن هذا فراشاً وثيراً بالمعنى الصحيح ، ولكن النسيم كان عليلاً في مركز البوليس ، فأغفيت دقائق زعمها أصحابي ثلاثين ، وقالت لي عظامي المهيضة

إنها كانت رقدة أهل الكهف

ولم تكن لى يومئذ زوجة ، فلما عدت إلى البيت لاحظت أمى أنى أشكو وجعاً فى ظهرى وتكسيراً فى عظامى ، فسألتنى : « أين كنت ؟ »

قلت : « فى مركز البوليس بالمرج »

فصاحت بى : « مركز البوليس ؟ لماذا ؟ ماذا صنعت ؟ »

قلت : « شممت النسيم ! »

قالت : « أكنت تشم النسيم أم تضرب علقة ؟ »

وظلت إلى أن ماتت ، وهى فى شك من هذا الأمر

ابراهيم عبد القادر المازنى

مصرع الصحافة العظيمة

فى ظل النظم الطاغية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لا يستطيع مؤرخ أن يتجاهل الدور العظيم الذى أدته الصحافة فى تطورات العالم السياسية والثقافية منذ أوائل القرن الماضى ؛ ولا يستطيع مؤرخ الحرب الكبرى أن ينسى أن الصحافة كانت الى جانب الجيوش والأساطيل أداة من أدوات النصر ؛ وليس مبالغة أن توصف الصحافة الحديثة بأنها فى الدولة سلطة رابعة الى جانب السلطات الدستورية الثلاث : التشريعية ، التنفيذية ، والقضائية ؛ وفى ظروف معينة تبدو الصحافة أولى السلطات وأهمها فى الدولة أو المجتمع : تنشىء حكومات وتسقط حكومات ، وتحشد الرأى العام لتحقيق برنامج معين أو فكرة معينة ، وقوتها فى ذلك لا تعادلها قوة ، ونفوذها لا يجاريه نفوذ .

هذه حقائق بديهية لا تقتضى جدلاً أو مناقشة . وما زالت الصحافة فى الأمم العظيمة الحرة هى صاحبة المقام الأول فى قيادة الرأى العام ، وفى توجيه القوى السياسية والاجتماعية . وفى عصرنا قطعت الصحافة فى سبيل التقدم العلمى والفنى مراحل مدهشة ؛ ولكن الصحافة أصيبت فى عصرنا أيضاً بأقسى محنة عرفتها فى تاريخها القصير المدى . فنى عدة من الأمم العظيمة لقيت الصحافة ضربتها القاضية ، وأصبحت شبحاً فقط لما كانت عليه من قبل ، وجردت من أعظم وأسمى مظاهرها : حرية التفكير والكتابة ؛ ولم تبق سوى أداة ذليلة خانعة للقوى الطاغية التى تخنقها وتسيرها كيفما شاءت

وقد كانت الصحافة الحرة وما زالت مظهراً من أهم مظاهر الديمقراطية والنظم الحرة ؛ وقد أصيبت الديمقراطية والنظم الحرة فى عصرنا برجة خطيرة ، وأصيبت معها كل مظاهرها الحقيقية ومنها الصحافة ؛ فحيثما نكبت الديمقراطية : فى روسيا السوفيتية ، وفى تركيا الكمالية ، وفى إيطاليا الفاشستية ، وأخيراً فى ألمانيا الهتلرية ، تلقى الصحافة أشد محنة عرفتها ، وتسحقها النظم الطاغية التى رأت أن تتخذها مع باقى القوى العامة ، أداة لتحقيق برنامجها وتوطيد سلطانها . وفى هذه البلاد التى يسود فيها الطغيان المطلق ، لم يبق رأى حر يستطيع أن يتنفس ، ولا رأى عام يستطيع أن يعبر عن شعوره أو يحدث أثره المشروع فى الحياة العامة ؛ ولا تستطيع أن تخرج من الصحافة إلا بصورة واحدة مكررة هى إرادة الطغاة ومزاعم الطغاة ، تفرض على ملايين من الناس لا حق لهم فى مناقشة أو تذمر ، ولا يسمح لهم بغير التأييد الأعمى

وتزعم هذه الحكومات الطاغية دائماً بأنها تحظى بتأييد الأمة المطلق ، وتحاول دائماً أن تتخذ من اجماع الصحافة المصفدة المسيرة دليلاً على هذا التأييد ؛ ولكن كيف يعرف رأى أمة لا يسمح لها بإبداء الرأى ، وكيف يوصف شعور أمة نحو الطغاة ، وهى ممنوعة بالقوة القاهرة عن إبداء هذا الشعور ؟ إن حكومات الطغيان تسن من القوانين الاستثنائية ما يكفل إخماد كل صوت وكل رأى معارض ، ثم هى لا تقف عند هذه القوانين ، بل تلجأ فى أحيان كثيرة الى إجراءات الهوى ، فتنزل بأولئك الذين يجرؤون على معارضتها أشنع العقوبات من قبض واعتقال ومصادرة ، بل ومن إعدام ، كل ذلك دون قانون ودون تحقيق أو محاكمة ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن الحياة البشرية فى هذه الأمم ، أضحت كالحريات العامة ، دون ضمان وطمأنينة ؛ وما زلنا نذكر كيف أن مئات من الألمان أزهقوا فى ٣٠ يونيه الماضى بيد هتلر ومعاونيه لريب فى تأييدهم للنظام القائم ؛ وقد أهدر دمهم جميعاً

لأن « الزعيم » أراد إعدامهم وكفى

* * *

تصفد الحرية الفكرية بهذه الاغلال حيثما يقوم الطغيان (الدكتاتورية). وقد كان البلاشفة أول من أخضع الصحافة لهذا النظام الحديدي، فلقيت فى ظل العهد الجديد ما لم تعرفه فى ظل القيصرية من القيود والاغلال المرهقة، ولم تلبث أن استحالت الى أداة رسمية صماء لا رأى لها ولا إرادة، وخفت الرأى العام الروسي منذ ثمانية عشر عاماً فلا يعرف العالم الخارجي عنه شيئاً؛ وحذت الفاشستية حذو البلشفية فى استعباد الصحافة وإخماد هذا التنفس الذى قد يثير حولها الصعاب إذا ترك طليقاً؛ ثم اقتفى الكماليون هذه الخطة فى تركيا، وفرضوا على الرأى العام أغلالاً لم يعرفها فى العصر الحميدى؛ ولما قام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا، كانت أولى وسائله لتوطيد سلطانه أن يسحق الرأى العام الألمانى، وذلك بسحق الصحافة متنفسه الطبيعى. وقد ذهب الهتلريون فى ذلك الى حدود لم تعرفها أشد عصور الطغيان

كان فى ألمانيا، قبل أن يغمرها طغيان الوطنية الاشتراكية، صحافة عظيمة زاهرة تعد فى مقدمة أعظم صحافات العالم؛ وكان لها نفوذها القوى فى توجيه الرأى العام وفى التعبير عن رغباته وميوله، شأنها فى كل الأمم العظيمة. ولكن زعماء النظام الجديد أدركوا قوة الصحافة وخطرها على نظم الطغيان، فسحقوها بيد من حديد ووضعوا لها تشريعاً استثنائياً خاصاً يسلبها كل حرية وكل استقلال فى الرأى، وجعلوا منها صناعة رسمية، ومن محرريها المسئولين عمالاً للحكومة؛ وأنشأوا وزارة خاصة للدعاية، تتركز فيها جميع عناصر الوحى والرأى والقول فى ألمانيا كلها؛ ولم يحجموا بذلك عن أن عزقوا بيدهم آخر الأقنعة التى تستتر بها الدكتاتورية، وأن يعترفوا جهاراً بأنهم هم الذين يوجهون الصحافة ويغذونها بكل عناصر القول والرأى؛ ولم يصفد الهتلريون الصحافة السياسية فقط، ولكنهم صفدوا كل أنواع التفكير والكتابة؛ والأدب والشعر، والفنون والعلوم وكل ألوان الثقافة، وجعلوا منها جميعاً أداة لبث مبادئهم وتمكين سلطانهم من أعناق الأمة التى يدعون الوصاية عليها. ومنذ أيام قلائل أصدرت الحكومة الهتلرية قانوناً استثنائياً جديداً يشدد أغلال الصحافة الألمانية ويقضى على آخر المظاهر التى بقيت لها. وقد وصف القانون الجديد بأن القصد منه «صون استقلال الصحافة» والواقع أنه يقضى على آخر ما بقى لها من لمحات الاستقلال، والمقصود به بنوع خاص أن يقضى على الصحافة التى تمثل مصالح المهن والطوائف والجماعات العامة، وعلى الصحافة الكاثوليكية التى مازالت قوية فى جنوب ألمانيا وغربها[1]. وهو ينص على حرمان كل شخص لا ينتمى إلى الجنس الآرى من العمل فى الصحافة وكل متعلقاتها؛ وإذا أريد تغيير ناشر الصحيفة أو محررها وجبت موافقة السلطات؛ وإذا رؤى فى أى جهة من الجهات أنه يوجد من الصحف مايزيد عن حاجتها عطل منها ما كان زائداً عن الحاجة، وقد نص أيضاً على تعطيل جميع الصحف التى تعنى بنشر الحوادث الجنائية والاجتماعية ووصفت فى المرسوم بأنها «صحافة الفضائح»، والخلاصة أن القانون الجديد لا يفسح مجال الحياة والظهور لغير الصحافة النازية الحكومية

ولقد كانت هذه الضربة الجديدة لقتل صحافة عظيمة مثار الاشمئزاز حيثما تقدس حرية الفكر والرأى، واستقبلتها الصحافة الانكليزية بعاصفة من السخط؛ وكتبت «التيمس» مقالاً رناناً قالت فيه: «إن خضوع الشعب الألمانى أمام تقييد حرياته ومورد أخباره يعتبر حادثاً مزعجاً جداً. وكيف يستطيع الشعب الألمانى بعد ذلك أن يقف على الظروف الحقيقية للسياسة الدولية من هذه المصادر التى تقدم له الآن. وكيف يفهم الألمان عبارة «الاعتزال السياسى» فى أوربا، وهى عبارة يرددها زعماؤهم وهى فى الغالب من صنعهم وتدبيرهم؟ وهل يفهمون الظروف الحقيقية التى قتل فيها الدكتور دولفوس المستشار النمسوى؟ والتى دبرت فيها مذبحة ٣٠ يونيه فى ألمانيا؟ وما يلقاه اليهود والسجناء السياسيون، وما يكون لهذه الأمور من أثر فى الرأى العام الأوروبى؟» وقالت الجارديان: «ان الصحافة التى كانت فى ألمانيا من أعظم الحرف وأرفعها، تنحدر الآن إلى الحضيض. وليست الجرائد «النازية» الحالية التى حلت محل الصحف التى كانت من قبل من أمهات الصحف العالمية، سوى وريقات لبث

(١) يلاحظ أن معظم الصحف الألمانية الكبرى تطبعها النزعة الكاثوليكية؛ وهذه الصحافة هى التى ما زالت تضطلع بالمركة الثقافية والروحية ضد النظام الاشتراكى الوطنى

الدعاية الخاصة ؛ ولم يبق أثر لحرية الفكر والجدل والمناقشة . وكان من مفاخر هذه الحرفة الكريمة فى ألمانيا أن عدداً عظيماً من كتابها وصحافييها آثروا الخراب والنفى والسجن على هذا الانحطاط الشنيع » ثم تتساءل الجارديان : « فهل بقى فى الشعب الألمانى روح حى يأسف على ضياع حرياته الفكرية والقلمية أو يثور على تلك التدابير التى تتخذ لسحق هذه الحريات بصفة نهائية ؟ »

والواقع أن الصحافة الألمانية سقطت من عداد الصحافات العظيمة مذ تولى الهتلريون الحكم ؛ ولم تفقد كل قوتها ونفوذها السياسى والاجتماعى فقط ، ولكنها فقدت كل خواصها ومميزاتها الثقافية الممتعة التى كانت من قبل فخر التفكير الألمانى ؛ وأخذت الصحف الألمانية العظيمة تختفى من الميدان تباعاً بعد أن فقدت مركزها وخاصة قرائها ، وامتدت النكبة إلى الصحافة الأدبية والفنية والعلمية ، فأخذت تنحدر إلى نفس المصير المحزن ؛ وتسيرها نفس الدعاية السياسية والثقافية التى غمرت ألمانيا ؛ وغدت الصحف الألمانية العلمية التى كانت من قبل اسفاراً جليلة تحمل على الاعجاب والاحترام ، أدوات للدعاية الهتلرية ، تحدثك باستمرار عن نظريات « الزعيم » فى خواص الجنس الآرى ، وانحطاط الأجناس السامية ، وتفوق السلالة الألمانية ، وأصول الثقافة الجرمانية القديمة ، وغيرها من المبادىء والنظريات الجنسية المتعصبة التى أصبحت ظاهرة الحياة العامة فى ألمانيا ؛ وأضحى أصدقاء الثقافة الألمانية الحرة فى حيرة من هذا الخلط المحزن بين الحقائق والغايات العلمية ، وبين النظريات والدعايات الحزبية التى جعلتها وزارة الدعاية الهتلرية فوق كل شىء فى حياة الشعب الألمانى

وتشعر الدوائر العلمية والأدبية والطبقات المفكرة الألمانية عامة بخطر هذا التيار الجارف على مستقبل التفكير والآداب الألمانية ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمقاومة هذا الخطر لأنها توضع تحت نفس النظم الجديدة التى جعلت من الصحافة ووسائل الثقافة الفنية كالمسرح والسينما والموسيقى والراديو ، أدوات للدعوة الحزبية المحضة . ويشعر الزعماء الهتلريون أنفسهم بفداحة الأثر الذى أحدثه هذا الاستعباد المطلق للتفكير الألمانى ، ويحاولون تبريره بمختلف النظريات والمعاذير . وملخص نظريتهم فى ذلك هو أن الصحافة من مظاهر الأنظمة الحرة وخواصها ، ومثل هذه المظاهر لا توجد فى ظل الاشتراكية الوطنية ؛ والمبادىء الحرة لم تسمح بتوحيد كلمة الشعب ، والاشتراكية الوطنية تريد الشعب كتلة واحدة ، وكلمة واحدة ؛ وقد كانت الصحافة فى عهد الحريات القديمة تستمد أعظم قواتها ونفوذها من الانتماء إلى الأحزاب ، ومن إثارة المناقشات السياسية ؛ فلما أزيل نظام الأحزاب أو زال منه تلقاء نفسه انحدرت الصحافة الحرة إلى مثل هذا المصير ، وفقدت أهميتها الحزبية والسياسية ؛ والاشتراكية الوطنية لا تقيم وزناً للجدل السياسى ، وفى رأيها انه متى زالت البواعث الموجبة لهذا الجدل ، وهو الخلاف الحزبى ، فان الصحافة تغدو أداة متماثلة فى عملها ومظاهرها . والاشتراكية الوطنية لا تعتمد على الصحافة كأداة للدعوة ، ولكنها تعتمد فى ذلك على الاذاعة اللاسلكية ؛ وهى عمادها فى قيادة الشعب وإرشاده . وأما الصحف فمهمتها أن تنقل للناس ما يسمعونه بواسطة « الراديو » لكى يعودوا فيقرأوه ويتدبروه . وأخيراً ترى الاشتراكية الوطنية أن الصحافة من الأنظمة القومية ، فيجب أن تكون حرفة رسمية تشرف عليها الدولة ، ويجب ألا يشتغل بها سوى الآريين ، فلا يسمح لليهود أن يشتغلوا بها أو يساهموا فى امتلاكها (وهذا ما يقرره قانون الصحافة الهتلرى) . وكما أن الصحافة السياسية تتلقى كل مواد الكتابة والتعليق من المكتب السياسى بوزارة الدعاية ، فكذلك تشرف على توجيه الصحافة العلمية والأدبية والفنية « غرفة للثقافة » وعلى توجيه الصحافة الاقتصادية والمالية « غرفة الدعاية الاقتصادية » ، وهكذا يسير التفكير الألمانى كله طبقاً لخطة حزبية موضوعة تقرر له المبادىء والمواد من وراء ستار وتلقنها إليه تحت سلطان القوة والوعيد

* * *

وهل نحن فى حاجة لأن ندحض هذه النظريات والآراء الرجعية الطاغية ؟ ان الاشتراكية الوطنية تعترف بأنها تقتل الصحافة لأنها لا تطيق النظم الحرة ، وفى ذلك ما يكفى للحكم على تدليلها ووسائلها . ولقد كانت حرية التفكير فى جميع العصور والأمم من خواص الأنظمة والحضارات العظيمة . ولكن ماهى الاشتراكية الوطنية الألمانية فى الواقع ؟ هى مزيج من الآراء والنظريات القومية والجنسية المغرقة ، التى تحمل فى معظمها

طابع التناقض وضيق الأفق ، وهى فى روحها واتجاهها ، أشد طغياناً من البلشفية والفاشستية ، وأشد إذكاء للشهوات والأحقاد الجنسية والطائفية ، وهى أوهام أذهان ضيقة متعصبة ، لا تؤمن بغير القوة والعنف ؛ وإنما يسبغ العنف عليها طابع النجاح . ومن الطبيعى أن تمقت كل صنوف الحرية وتخشاها . والصحافة الحرة من أخطر القوى على نظم الطغيان

ولنلاحظ أخيراً أن محنة التفكير الألمانى لا تقف عند مصرع الصحافة ، بل هى أشد أثراً وأوسع مدى ؛ فهى تشمل كل صنوف التفكير والآداب والعلوم والفنون ؛ وهذه كلها تخضع اليوم لنفس الأغلال والقوى ، وتمزقها وتشوهها نفس الأهواء والشهوات الهدامة ؛ وهى كلها تسير فى ظل الاشتراكية الوطنية الى نفس المصير المحزن الذى تنحدر اليه جميع القوى الروحية والفكرية فى ألمانيا

محمد عبد الله عنان
المحامى

أيا صوفيـــا
للأستاذ على الطنطاوى

كنا فى « أوتيل مكة المكرمة » ، ذلك القصر الفخم ، الذى كان للشريف عدنان حمى منيعاً ، وحصناً حصيناً ، يهاب الجبابرة الدنوّ من بابه ، وتخشى الطير التحليق فى سمائه ، ويتجنب الناس النظر اليه إلا نظر الخائف الحذر ، لأنهم يعلمون أن الكلمة متى خرجت من فم صاحبه كانت كسهم القضاء ، من أصابت أصْمَت ، وأنه ليس بين أحدهم وبين أن يقتل أو يدفن حياً فى جب القصر المظلم ، أو تنهب أمواله ، أو تحرق دوره ... إلا أن يشى به إلى الشريف واش ، أو تصيبه عرضاً نقمة من نقماته !

وكنا فى الردهة الكبرى التى بناها فأجاد بنيانها ، وزخرفها فبالغ فى زخرفها ، حتى كانت تحفة من التحف ، وآية من آيات العمران ، نعجب من تصاريف القدر ، وأحداث الزمان : كيف ذهب الملك ، واندثر السلطان ، وغدا الشريف الجبار ، الذى كان يتبختر فى ثياب الوشى ، وأردية الديباج ، وتمشى أمامه العبيد بالسيوف ، والخدم بالمجامر ، ويسير وراءه الوجهاء والأعيان . . . كيف غدا بعد هذا الجمال الناضر ، عظاماً نخرة ، فى حفرة مقفرة ، وكيف استبدل بالقصر الكبير ، هذا القبر الحقير ، وكيف ذهب المال والولد ، والخدم والعبيد ، والحجاب والأعوان ، والأعداء والأخوان ، ومات الحب والبغض ، والخوف والرجاء ... حتى لكأنما لم يمر على الدنيا عدنان ، وكأنما لم يكن يوماً سيد مكة وجبارها ، وكيف ورثنا القصر أياماً وليالى نطؤه مطمئنين ، وننام فيه آمنين ، ونأمر فيه مطاعين ، لا نذكر صاحبه وبانيه ، ولا نقيم له وزناً ، ولا نحسب له حساباً !

كنا جالسين مع اخواننا رجال الوفد السورى ، نتحدث أنْ لا بقاء للانسان . وأن لا خلود فى الدنيا ، وأن الأيام دول ، والدهر دولاب ، فكم من عزيز قد ذل ، ومن ذليل قد عزّ ، ومن ملوك كانوا أعزّ من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم ، فلا يغرّن امرؤ بالدنيا :

فما الدنيا بباقيـــة لحىّ وما حى على الدنيـا بباق

ولا يدخرن وسعاً فى كسب الذكر للدنيا والأجر للآخرة ، فما الحياة إلا حياة التاريخ ، وحياة الجنة . . .

* * *

وكنت لا أنى أسأل عن « الرسالة » ، وألح على مدير الأوتيل وهو من المشتركين فيها ، أن يأتينى بالأعداد الأخيرة منها ، وقد كنت فى دمشق اذا تأخرت « الرسالة » يوماً قلقت من تأخرها ، واشتد شوقى اليها ، فكيف وقد مرّت أربعة أعداد لم أرها ؟ صدرت ونحن على هامش الحياة ، من وراء حدود العالم ، نسير فى الصحراء سبعة عشر يوماً من دمشق الى المدينة ، لم نر فيها إلا ثلاث قرى ، ما لقينا من دونها بشراً ولا شجراً ، ولا وحشاً ولا طائراً ، وما أبصرنا إلا سلاسل الجبال ، وتلال الرمل التى تتعاقب لا حد لها ، فتانة متموجة ، كأنها قد مرّت عليها يد نقاش صَنَّاع ، سبعة عشر يوماً ، ملأت فصلاً طويلاً من سفر حياتى ، بأعمق الشعور ، وأشد العواطف

فلما جاءنى خادم الأوتيل بأعداد الرسالة ، أقبلت أصفحها وأقرأ من كل مقالة عنوانها ، فرابنى منها عنوان مقالة ، ما إن قرأتها حتى سقطت الرسالة من يدى وعرتنى رجفة وأحسست أن قد دِيرَ بى

خبر هائل تصدّع لهوله القلوب ، قلوب المؤمنين حزناً وألماً ، وتندى له الجباه حياء وخجلاً ، وتكلّ عن وصفه الألسنة دهشة وتفظّعاً

* * *

ذلك ان الجمهورية التركية ، لم يشف غيظ قلوبها ، كل ماصنعته بالاسلام ، وما أنزلته بأهله ، فعمدت الى بيت من بيوت الله ، تقام فيه شعائر الله ، فجعلته بيتاً للأصنام ، ومثابة للوثنية ، أماتت فيه التوحيد ، وأحيت فيه الشرك ، وطمست منه آى القرآن ، وأظهرت فيه الصور والأوثان ، لم تضق بها الأرض حتى ماتجد مكاناً لمتحفها هذا إلا المسجد الجامع ، ولكن النفوس الملحدة ضاقت بهذا المسجد ، وأحسّ أصحابها كأن هذه المآذن فى عيونهم ، وكأن هذه القبة على ظهورهم ، وعشيت أبصارهم من نور الله ، فأرادوا ليطفئوه بأفواههم ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فعطلت الصلاة فى أيا صوفيا فلا تقام فيها بعد اليوم — وسكت المؤذن فلا يدعو فى مآذنها إلى الله — ولا يصدع بالتهليل والتكبير ، ونأى عنها المؤمنون فلا يدخلونها إلا مستعبرين باكين ، يندبون فيها مجد الاسلام ، وعظمة الخلافة ، وجلالة السلطان ، وذل فيها المسلمون وصاروا غرباء عنها وهم أصحابها وأهلوها ، وعز فيها المشركون ، وشعروا أن أيا صوفيا قد ختمت فيها صفحة الاسلام ، باسم هذا ال . . . « أتا تورك » كما فتحت باسم « محمد الفاتح » !

أيا صوفيا التى صيح فى مآذنها خمسين وثلاثمائة واثنتين وسبعين وثمانمائة (٨٧٢٣٥٠) الف مرّة : حىّ على الصلاة ، حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . . . لا إله إلا الله ، فاصطف فيها المسلمون خاشعة أبصارهم مؤمنة قلوبهم ، ساكنة جوارحهم ، قد وضعوا الدنيا تحت أقدامهم ، ودبّر آذانهم ، وأقبلوا على الله بخشوع واخلاص ، فجزاهم بما خشعوا وأخلصوا ، قلوباً استنارت بالايمان ، وعمرت باليقين ، وكان القلب منها وهو يخفق بين جوانح صاحبه ، أكبر من الأرض وهى تجرى فى ملكوت الله . . . فملكوا بهذه القلوب الأرض ، وفتحوا بها العالم !

أيا صوفيا التى بات فيها المسلمون سبعين وأربعمائة وأربعاً وسبعين ومائة الف (١٧٤٤٧٠) ليلة ، ولهم فى جوفها دوىّ بالتسبيح والتكبير والتهليل كدوّى النحل ، وما فى أرضها شبر لم يكن موطئ قدم مصلّ ، أو مجلس قارئ ، أو مقام ذاكر ، أو مقعد مدرس أو سامع ، وليس يحصى إلا الله ، كم ختم فيها من ختمة ، وكم ألقى فيها من درس ، وكم ذكر فيها الله ، وكم أقيمت فيها الصلاة !

أيا صوفيا التى تشهد كل حجرة فيها ، وتشهد أرضها وسماؤها ، وتشهد قبتها الشمخرة ، وتشهد مآذنها السامقة ، ويشهد الناس ، ويشهد الله وملائكته ، أنها بيت من بيوت الله ، وحصن من حصون التوحيد ، ودار من دور العبادة . . .

أيا صوفيا . . . تعود للجبت والطاغوت ، وتحمل الصور والأصنام ، ويخسرها الاسلام والشرق ، ليربحها الكفر والغرب ؟

لقد أريقت حول أيا صوفيا دماء زكية ، وزهقت فى سبيل أيا صوفيا أرواح طاهرة ، من لدن معاوية إلى عهد الفاتح ، إلى عهد عبد الحميد . . . أفراحت الدماء هدراً وذهبت النفوس ضياعاً ، وعادت أيا صوفيا بعد سبع وثمانين وأربعمائة سنة وكأنما لم يذكر فيها الله ، ولم يتل فيها القرآن ، ولم تقم فيها الأئمة ، ولم تتجاوب مآذنها بالأذان ؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم ، وسقوه بدمائهم ، وحموه بسيوفهم ، ثم وقفوه على الاسلام ، أفيأتى فى ذيل الزمان ، من يعبث بالوقف ، ويهزأ بالدماء ، ويلعب بالجماجم ، ثم لا يردعه رادع ، ولا يعظه واعظ ؟

ومن هم الأتراك لولا الاسلام ؟ على أىّ حسب يتكلون ، وبأى نسب يفخرون ، وبأى ماض يعتزّون ، وبأى مجد يباهون ؟ أبمجد رعاة البقر فى تركستان ، أم بمجد أرطغرل بك ، وقد جاء من مشرق الشمس بدوياً جافياً فقيراً لا يملك إلا أعنة ركائبه ، وطنب خيامه ، يفترش الغبراء ، ويلتحف السماء ، فصار أحفاده بالاسلام سادة القارات الثلاث ؟ أفرأيت من ينطح برأسه الصخر ، ويشرب بفيه البحر ، ذلك هو التركى حين ينكر الاسلام ، ويسعى لايذائه . إنه لا يحطم الصخر ، ولا يجفف البحر ، ولكن يمشى على رأسه إلى القبر ، وإن الاسلام إلا يكن بالترك يكن بغيرهم ، ولكن الترك إلا يكونوا بالاسلام لا يكونوا والله بغيره أبداً . . .

* * *

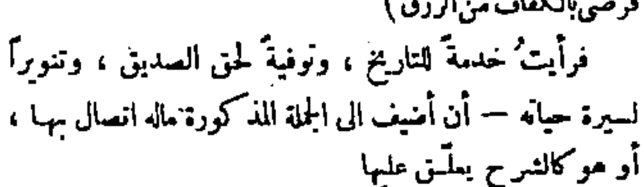
وعدنا نعتبر ونتحدث أنْ لا بقاء للانسان ، وأن لا خلود فى الدنيا ، وأن الأيام دول ، والدهر دولاب ، فكم من عزيز قد ذل ، وكم ذليل قد عز ، وكم من ملوك « ورؤساء جمهوريات » كانوا أعز من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم وأن « الشريف عدنان » مهما يكن جباراً قوياً ، فانه سيصبح

صديقى الكاظمى

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى

رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق





قرأت فى الرسالة (عدد ٩٦) نعىّ شاعر العرب الأكبر الشيخ عبد المحسن الكاظمى رحمه الله . فألمتُ لفقده، وتذكرت سابق عهده، وقديم ودّه.

وقد ذكر ناعيه من خبره: (انه لاذ بكنف الامام محمد عبده الذى ظاهر نعمه عليه . وانه نكد عيشه بعد الامام، فرضى بالكفاف من الرزق)

فرأيتُ خدمةً للتاريخ، وتوفيةً لحق الصديق، وتنويراً لسيرة حياته — أن أضيف الى الجملة المذكورة ماله اتصال بها، أو هو كالشرح يعلّق عليها

عرفت الشيخ عبد المحسن فى إدارة (المؤيد) لأول عهدى بالتحرير فيه . وهناك توثّقت بينى وبينه عُرى المودة، وأخذت أعرف من دخيلة أمره ما لا يعرفه سواى . وكان ذلك بعد وفاة أستاذنا الامام بسنةٍ ونيف

ومما أخبرنى به أن الامام رحمه الله كان يتعهده فى آخر كل شهر بعشرة جنيهات : يودعها غلافاً ثم تسلّم اليه فى داره من دون أن يشعر بما فى الغلاف أحد . وبعد وفاة الامام لم يجد مندوحةً عن السعى لدى الخديو فى أن يكون له مرتب شهرى من الأوقاف . فتوسط فى هذا الأمر الشيخ على يوسف صاحب المؤيد . فكان الشيخ يراجع الخديو فى تقرير الراتب، والخديو يأبى — كلما رُوجع بشأنه — إلا الرضخ له من مال الأوقاف بنحو خمسين جنيهاً؛ وكنت أذهب مع الشيخ عبد المحسن الى الديوان فيقبضها . وقد تكررت هذه المعاملة المرة بعد المرة . والشيخ عبد المحسن فى كل مرة يُظهر التأفّف من تناوله المعونة على هذه الصورة التى ما كان يراها تتّفق مع كرامته وإباء نفسه . وكان يلحّ على الشيخ على : تارةً بنفسه، وطوراً بواسطتى — أن يكلم الخديو فى تعيين راتبٍ شهرىٍّ مقطوع : (عشرة جنيهات فقط) يُريحه بها من عناء التوسّط ومكابدة المعاملات الديوانية

وان انتساب الشيخ الكاظمى الى الإمام المفتى إن كان من شأنه أن يحدث فتوراً نحوه فى نفس الخديو، فما كان قط ليحدث مثلَ هذا الفتور فى نفس الشيخ على يوسف . فكنا ننزّه الشيخ علياً عن وصمة الفتور، لكننا كنا واقفين وقفة الايجاس، من حالة الخديو عباس

ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعاً، فكلفنى أن آخذ من الشيخ على وعداً بانجاز المسألة مع الخديو : إما سلباً يُريح النفس، أو إيجاباً يزيح العلّة

فتركت الشيخ عبد المحسن فى غرفة التحرير، ودخلت على الشيخ على، وبلغته الرسالة، وكان يصحح مقالةً للطبع . فترك القلم من يده، وتنفس الصعداء ثم قال : ماذا أصنع يا أستاذ ؟ أنهيتُ القضيةَ أمس مع الخديو، ووعد وعداً أكيداً باصدار أمره بتعيين الراتب، وقد شكرت له وخرجت من عنده . لكننى لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض الناس (ولم يسمّه لى) فقال للخديو : رأيتُ فلاناً خارجاً من عندك، فماذا يبغى ؟ قال : قررنا راتباً للشيخ عبد المحسن الكاظمى . قال : أنسيت أنه شاعر المفتى، وقد قال فيه من الشعر كذا وعرّض فيك بكذا وكذا ؟

قال الشيخ على : فما كان من الخديو إلا الشحّ برفده، والنكول عن وعده

ويصبح أعوانه، رمماً بالية، فى حفر خالية، ويبقى الله، وسينصر دينه، ويؤيد حزبه، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

* * *

أيها « الشريف عدنان » ! لا تغتر، قد ورثنا القصر، وورثت القبر، وهدمنا مابنيت، وبنينا ماهدمت . . . وماهدمت إذ هدمت، إلا مجدك فى التاريخ، وأجرك فى الآخرة . . .

مكة المكرمة — على الطنطاوى

فلما وعيت هذا رجعت الى الشيخ الكاظمى ، فأخبرته الخبر ، فتأرجحّ التأثر ، وقال لى : أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا . قال : هو أحمد شوقى

وكنت الى ذلك الحين لم أعرف سعادة أحمد شوقى بك رحمه الله ، ولا اجتمعت به ، وإنما لقيته بعد ذلك فى إدارة المؤيد وقد طلب من الشيخ على أن يرانى فتلاقينا وتعارفنا

ثم قال لى الشيخ عبد المحسن : وما الحيلة الآن يا أستاذ ؟ قلت : تحسين العلاقة مع أحمد شوقى بك ، ففارقته على نية اللقاء فى وقت نذهب فيه إلى (كرمة ابن هانئ) ، وكانت الكرمة بنيت ، حديثاً فذهبنا اليها وأرسل الشيخ عبد المحسن بطاقته الى البك ، فأجيب بأنه خرج ، أما الشيخ عبد المحسن فقد أقسم أنه لم يخرج ، وإنما أراد ألا يقابله

ومن ذلك الحين يئس من الخديو والراتب . وفوض أمره الى الله . ثم لما اشتد به المرض ، ولازم داره فى (درب الكحكيين) جعلت أتردد اليه فيها ، وكنا نقضى ساعات فى الحديث ورواية الشعر ومطارحة الأدب وأخبار الأدباء ، وخاصة أدباء العراق من الشيعة ، وقد لخصت بعض أحاديثه عنهم فى أمليّة العدد الصادر فى ١ يوليو سنة ١٩٠٧ من (أمالى الأدب) التى كنت أنشرها فى (المؤيد) من وقت الى آخر

وكان الشيخ عبد المحسن يخص باعجابه من بين شعراء العراق (ابراهيم الطباطبائى النجفى) الذى جمع بين جودة الشعر وحسن الانشاد ورخامة الصوت ، وهو الذى يقول فى صغيريه حسن ومحمد من قصيدة :

(أما وضوءِ الأبيضين لأنّما ... قمرا سعودى فى الليالى السود)
(ما أنّما إلا كقرطى غادةٍ ... يتذبذبان على خدود الخود)

وتأخرت عن زيارة (الكاظمى) أياماً فكتب إلىّ بهذه الأبيات :

(يامن تخيّرتُه دون الرفاق أخاً ... ألقى به عادياتِ الدهر والأزما)
(عُدمت نفساً كاد يُبلى جسمه سَقم ... لعل قربك منه يُبعد السقما)
(إذا ألمّتْ به غماءُ جائحة ... فنورُ وجهك عنه يكشف الغما)
(كم منةٍ لك طول الدهر فى عنقى ... ما زلت أذكرها أو أسكن الرّجما)

وقوله (الأزما) بكسر الهمزة وفتح الزاى جمع أزمة بمعنى الشدة والضيق ، وهو جمعٌ نادر . ومنه قولهم فى جمع (بَدْرة) (بِدَر)

ولم آسف على شىء أسفى على خبرين كان حدثنى بهما فلم أستقص تدوينهما فى مذكراتى عنه

(الأول) ما وصفه لى من نشأته الشعرية تحت إشراف أخيه الأكبر ، وكانت دار أخيه (فى بغداد أو الكاظمية) مثابة لشعراء الشيعة وأدبائهم . فكان الكاظمى الحدث يطارحهم الأدب ويسابقهم إلى قرض الشعر ، وكان أحياناً يجيد إجادةً يعجب بها القوم ويهتزّ لها أخوه طرباً وسروراً . وأنشدنى قطعاً من شعره قالها لمناسباتٍ عرضت فى تلك الاجتماعات فاتنى تدوينها مع المناسبات التى قيلت فيها

(الثانى) ما وصفه لى من إلحاح الفاقة عليه فى بعض الأيام حتى أنه سأل تاجر الدجاج الذى كان يبتاع من دجاجه أنْ يصف له طريقته فى تفريخها وتغذيتها والقيام عليها ليعتاش هو من وراء ذلك . فوصفها الرجل له . وحاول أن يجربها ، ففعل . وأصبح عنده ألوف من الفراريج . وكان يعتنى بها ويطعمها الأرز ، لكنه لم ينجح فى تجربته ، وكانت الخسارة عليه عظيمة . قال : وما كان يخطر لى قط أن الكتاكيت سريعة العطب ، رقيقة المزاج إلى هذا الحدّ . وأنها إذا لم يتدبر صاحبها أمرها بانتباهٍ وفرط حيطةٍ ، ومراعاة الأصول فى تغذيتها وتدفئتها لا يبقى من الألف منها سوى بضعة عشر كتكوتاً

وكان فى سرده لهذه الحادثة استقصاءٌ دقيق ، ودرسٌ اقتصادى عميق ، وفكاهةٌ تسرّى عن النفس البائسة كآبتها ، وتميد إلى الأسارير العابسة بشاشتها

ولما زرته فى السنة الماضية مع صديق الأستاذ (الهراوى) فى داره بمصر الجديدة ظننت أنه يمكننى محادثته بشأن كتاكيته ، فلم أصادف من صحته ونشاطه ما يساعد على الكلام فى هذا الموضوع ، وإنما اقتصر حديثنا على وصف المسرة بتلاقينا بعد نحو ثلاثين سنة من تنائينا

والكاظمى ينظم الشعر على طريقة شعراء عرب الجزيرة من حيث متانة الأسلوب وجزالة الألفاظ ، وربما امتاز عن كثيرين منهم بخلو شعره من المماظلة والتعقيد والأغراب

وكما أنه تفوّق على شعراء زمانه بهذه الطريقة الفحلة نراه امتاز عنهم أيضاً فى أنه يرتجل الشعر ارتجالاً غاية فى السلاسة لا جمجمة فيه ولا تلكؤ . وإذا ارتجله وقع شعره المرتجل فى قالب طريقته الشعرية المطبوعة ، أى إنه مهما طال نفسه فى الارتجال جاء شعره المرتجل موسوماً بطابعه الشخصى ، متقاوداً مستوى

المتون ، لا تشاخُس فيه ولا تفاوت ؛ لا يخـذل آخره أوّله ، ولا ينوء عجزه بكلكله ، وهذا موضع الغرابة فى ارتجاله . وربما لا يجاريه فى هذه المزية إلا القليل من الشعراء الأقدمين بله المتأخرين من شعراء هذه الأيام

ومن ظريف أخبار بداهته ما اتفق لى معه : ذلك أنه زارنى يوماً فى إدارة المؤيد ، فابتدره زميلى الصحافى المشهور سليم سركيس رحمه الله بالعتب الشديد عليه لأغفاله تهنئته بزيه البلدى الجديد

وكان من خبر هـذا الزى أن (سليماً) تضايق من اللبوس الافرنجى المحزق ولاسيما ياقة القميص المكوى ، وربطة الرقبة (الكرافات) وشطاطها أو بكلتها التى كانت تمنعه الحركة وإدارة رأسه يمنةً ويسرةً وهو يحرر ويترجم والفصل فصلُ الصيف والحرُّ حرُّ القاهرة . فما كان منه إلا أن أعلن هجر ذلك الزى والزراية عليـه ، واصطنع لنفسه الزى البلدى : قفطاناً مشدود الوسط بالزنار ، ويحيط أعلى القفطان بعنقه من دون ياقة ولا عرى ولا أزرار ؛ وقد سدل فوق القفطان جبةً بلديةً مخصرة الوسط ، فضفاضة الأذيال ، سهلة الطىّ ، سريعة اللى . وأعلن خبره هذا فى الصحف المحلية مشفوعاً برسمه العربى الأصيل ، وزيه البـلدى الجميل ؛ وأخذ إخوانه المحررون — وهم كُثر — يصفون خبره فى صحفهم ، والشعراء منهم يهنئونه بقصائدهم

وكان صديقنا (سليم) تعجبه طريقة الصحافى الأميركى الكبير (برزبان) الذى يتخذ فى موضوعات كتابته من الحبّة قبّة ، فكيف لا يتخذ هو موضوعاً يلذّ المصريين من القفطان والجبّة ؟

وكم مرةً سمعته يقول : إننى أنا الكاتب الصحافى ، وقد تلقيت فن الصحافة من سفرى إلى أميركا ومباشرة صحافييها . أما زميلاى : (المنفلوطى) و (المغربى) فليسا صحافيين بالمعنى المقصود من كلمة الصحافة : المغربى كاتب عالم ، والمنفلوطى كاتب شاعر

فلما دخل علينا السيد الكاظمى وأسمعه سليم عتبه عليه قال له :

ألقِ دواتك واقربْ وخذ أداتك واكتبْ

ثم جعل يرتجل شعراً فى مدح سليم ، ووصف زيه الجديد . عليه عليـه وهو يكتب . حتى إذا طال نَفَس القول اعترضتُه أنا قائلاً : أرى أنه سيكون لهذه القصيدة نبأ عظيم بين أدباء القاهرة ، فلم لا يكون لى فيها ذكر وأنا ثالثكما وشاهد حادثتكما ؟

فتحوّل الكاظمى عن (سليم) وأقبل علىّ ، وخاطبنى ببضعة أبيات من شعره المرتجل على وزنه وقافيته . ثم عاد إلى إتمام الكلام فى سليم حتى أكمل قصيدة بلغت الثلاثين بيتاً فيما أذكر ، وقد نشرها صديق سليم فى مجلته — سنتها الثانيـة أو الثالثة — وحكى القصة كما وقعت ، لكنه ذهب إلى اننى إنما اقترحت على السيد الكاظمى أن يذكرنى فى القصيدة امتحاناً له ، واستيثاقاً من أمر ارتجاله .

رحم الله (الكاظمى) وعوضنا الدهر منه ولا أراه فاعلاً

دمشق المغربى

رئيس المجمع العلمى العربى

ماذا يقولون عنا ؟

العالم الاسلامى

فرنسا وشمال أفريقية

ترجمة مقال نشرته مجلة (لموا) لكاتب فرنسى مطلع

العالم الاسلامى : العالم الاسلامى امبراطورية واسعة تنقسم كالعالم المسيحى إلى عدد كبير من الممالك التى تجمعها عقيدة مشتركة ويفصلها اختلاف الجنس والموقع الجغرافى والنظام السياسى . وهذه الممالك تتفاوت درجات تقدمها الاقتصادى والفكرى تفاوتاً شديداً . ففى نجد وملحقاتها التى تسمى الآن المملكة السعودية لاتزال تسود حياة القبائل الرحّل ، بينما نجد تركيا والبلاد التى تحت الانتداب الفرنسى والبريطانى وأفريقيا الشمالية قد بلغت الآن درجة رفيعة فى مدنيتها الصناعية .

نهضة العالم الاسلامى : ولقد كان من نتيجة احتكاك هذه الممالك بالمدنية الحديثة أن دخلت كلها فى دائرة النشاط العالمى بعد أن كانت بعيدة — مع تفاوت درجات هذا البعد — عن تيارات التعامل الكبرى . وذلك هو ما يمكن أن نسميه نهضة العالم الاسلامى ، ويقصد بها نفس ما قيل عن نهضة الصين . ولقد عجلت الحرب الكبرى هذه الحركة بصهرها شعوب العالم فى الأتون الجهنمى ، فقد كان لهذه الحرب نتيجتان — على الأخص — غير منتظرتين ولكنهما كانتا عظيمتى الأثر ؛ إذ منحت اليهود وطناً قومياً فى فلسطين فتحقق بذلك الحلم الذى كان يسعى وراءه بنو اسرائيل منذ تخريب بيت المقدس على يد طيطوس Titus عام ٧٠ م . ثم حررت العالم العربى من الحكم التركى

وبعد الحرب سارت نهضة العالم الاسلامى بخطوات سريعة لأن المحاربين وجدوا أنفسهم مضطرين كيا يصلحوا الأضرار التى أصابتهم إلى أن يوسعوا تجارتهم ويجدّوا للحصول على أسواق جديدة ، فكان استغلال المناجم وأعمال الرى وبناء الطرق والسكك الحديدية والسيارات والطيران وبعبارة موجزة (كل المعدات الحديثة للدول الشرقية التى تقوم على قدم وساق وتعمل على تغيير أحوال معيشتها تغييراً عميقاً) [1] ولقد انقلبت دار الصناعة رأساً على عقب وهى التى عليها تقوم حياة البلاد الاقتصادية . وذلك بسبب طرق الصناعة الحديثة ومنافستها . ففى عام ١٩٣٢ كانت المنسوجات اليابانية تعادل ٧٠٪ مما فى أسواق العراق ، وفى سوريا توقفت صناعة النسج وكان فى ذلك القضاء الأخير على دور دودة القز

ولقد نتج عن ذلك كثير من ضروب العراك بين المعتقدات والعوائد الماضية ، وبين الأفكار والمستلزمات الجديدة . فلاتزال المساجد مركزاً للهياج السياسى ، ووسط جزيرة العرب لا يزال متمسكاً بالقانون الدينى التقليدى الذى يقول بقطع يد السارق ، والجماهير لا تزال فى كل مكان شديدة التأثر بخطب المهيجين . على أن نخبة القوم فى مصر وسوريا والعراق يهجرون شيئاً فشيئاً الدراسات الدينية ، ويوشك أن يزول أثر الاسلام فى شئون الحكومات . وبالرغم من ذلك فقد أثار تحرر تركيا من سيطرة الدين كثيراً من الاضطرابات . على أن ضروباً من التقاليد المقدسة قد امحت الثقة بها ، ومثل ذلك أعمال الدراويش فى حلقات الذكر . ومن ناحية أخرى فان مسألة القبعة وإن لقيت تقدماً بطيئاً نجد مشكلة حجاب المرأة لم يطرأ عليها تغير ما بالرغم من الثورة التركية . أما الخلافة فليس لها الآن إلا عدد قليل من الأنصار إذا استثنينا الهنود

فى وسط هذه الحركات المختلفة نرى اتجاهين رئيسيين كانا نتيجة لتقدم السكان ورقى البلاد : اتجاه توحدى unitaire واتجاه قومى nationaliste

الاتجاه التوحدى : إن الاتجاه التوحدى يستمد قوته من النهضة العامة للضمير الاسلامى ، ومن شعور هذه الممالك باشتراكها من حيث الأصل . وهذا الشعور يقويه مكافحة الغرب وكره الأجنبى . ومن هنا قامت كل هذه الهيآت والمؤتمرات التى تحاول جهدها أن تربط جميع الشرقيين على اختلاف طبقاتهم وأديانهم وممالكهم لتوجههم إلى غرض واحد هو الاتحاد ومقاومة الأجنبى . ولاجتماعات المسلمين فى الظاهر صفة دينية على الأخص . وهى بغية الوصول لتحقيق فكرة الجامعة الاسلامية ، لكن فكرة مؤتمر مكة قد أهملت دون أن يصيبها النجاح (فى عام ٩٣٠

(١) L. Jouklet, Revue des Etudes islamiques, Octobre. 1934

وعام ١٩٣١) ويؤكد بعضهم من جهة أخرى أن عدد الحجاج الذين يذهبون إلى مكة قد هبط من ١٢٠ ألفاً في عام ١٩٢٩ إلى ٩٠ ألفاً في عام ١٩٣٠ و ٧٠ ألفاً في عام ١٩٣١ و ٣٠ ألفاً في عام ١٩٣٢ ومن ٢٠ ألفاً إلى ٢٥ ألفاً في عام ١٩٣٣ ولم يأت من مصر إلا ألفان من الحجاج عام ١٩٣٣ وليس للأزمة الاقتصادية إلا أثر جزئي في هذا الهبوط

والواقع أن فكرة الجامعة الاسلامية تصطدم باستحالة توجيه ثلثمائة أو أربعمائة مليون من المسلمين . كما أن الفكرة الدينية لا تكفي لربط العالم الاسلامي وحفزه . وهناك برهان مادي على صدق هذا القول وهو فشل فكرة الخلافة : (ففكرة الخلافة التي تقاومها السلطات التركية باستمرار في كل المناسبات يظهر أنها قد ماتت تماماً في الوقت الحاضر في البلاد العربية . ولقد أعلن الملك عبد العزيز بن السعود نفسه وهو يستقبل الحجاج في مكة أنه لم يجر ولن يجرى مطلقاً وراء لقب خليفة المسلمين . فالخليفة يجب عليه مراقبة أوامر الدين ونواهيه في كل أجزاء الأرض . وفي عصرنا الحاضر لا يوجد رجل قادر على أن يضطلع بهذا الأمر . وعلى ذلك فان النهضة الدينية في الشرق الاسلامي يمكن اعتبارها « رد فعل » في سبيل الدفاع السياسي أكثر منها بداية نهضة . فالاسلام هو الآن قوة لمكافحة الاستعمار الغربي واليهودي ، لكن أثره في حياة الحكومات يفقد تدريجياً خطره الذي كان له في الزمن السابق . ويجب أن نضيف أيضاً أن مما يتفق وتاريخ المدينة الاسلامية ما نراه الآن من تقدم حركة دينية قوية ترمي إلى توحيد قوى قسمتها السياسة ، وإقامة جبهة صلبة ضد الغرب)[1] ومنذ عهد قريب تبذل الجهود لبعث النشاط الايجابي في كل عضو من جسم العالم الاسلامي

ولقد نتج عن الهبوط (النسبي) للفكرة الدينية أن اتخذت كل الحركات المبذولة في سبيل الوحدة صبغة سياسية . وقد قوّى تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين الشعورَ بواجب الدفاع عن بيت المقدس وهو المدينة المقدسة الثانية للعالم الاسلامي . وفي أثناء عام ١٩٣١ دعا المفتي الأعظم الى المؤتمر الذي عقد في ديسمبر ، (وكان الغرض من هذا المؤتمر يبدو أولاً دينياً محضاً : وهو التعاون الاسلامي ونشر الثقافة الاسلامية ومقاومة الالحاد ، والدفاع عن الأراضي المقدسة ، والمحافظة على التقاليد ، وإنشاء جامعة علمية في بيت المقدس ، وبحث حالة سكة حديد الحجاز) والواقع أنه لم يمكن المحافظة على البرنامج المبدئي . فقد كان من اللازم التوسع فيه حتى يستطيع أن يعالج أيضاً موضوعات مختلفة تهم حالة الشعوب الاسلامية من الناحيتين السياسية والثقافية . وبالرغم من ذلك فان سلطة المؤتمر قد ضعفت لغياب الممثلين الرسميين لمصر والعراق ونجد ، وبتأكيد الحكومة التركية عداوتها لكل سياسة داخلية أو خارجية (تستخدم الدين كوسيلة سياسية) ، وفي بيت المقدس نفسه أعلن الحزب المعادي للمفتي الأكبر أن الرؤساء المسلمين لم يؤيدوا المشروع إذ لم يؤخذ رأيهم فيه

الجامعة العربية : ومنذ الحرب الكبرى ، أو بعبارة أخرى منذ سقوط الامبراطورية العثمانية تتخذ الحركة التوحيدية صبغة جديدة . فالجامعة الاسلامية قد تحولت الى توسع استعماري عربي . إذ حلت محل الفكرة الدينية التي حاق بها الضعف فكرةُ الوحدة الثقافية : أي وحدة البلاد التي تتكلم اللغة العربية ، والتي يبلغ مقدارها ٧٠ مليوناً ، ولقد بذل منذ نصف قرن على الأخص مجهود في سبيل اللغة — لم يكن الغرب يشك في قوته — كان له أثر في تغيير الحالة الثقافية للبلاد العربية لدرجة أنه لم يعد من السهل المقارنة بين اللغة القومية واللغات الأجنبية من جهة ، وبين البلاد العربية وأفريقيا الشمالية من جهة أخرى . وفي منتصف القرن التاسع عشر كان السكان الذين يتكلمون اللغة العربية في الشرق الأدنى وخصوصاً في سوريا وفلسطين يعتمدون على المصادر التي لا بأس بها في لهجاتهم الدارجة ، وكانت اللغة الفصحى غير كافية ، ولم تكن تؤدي الحاجة الضرورية . لذا كان من اللازم الالتجاء الى اللغات الأجنبية كالفرنسية والانجليزية والتركية واليونانية والروسية . ولقد غُيرت هذه الحالة تغييراً عميقاً بخلق لغة فصحى حديثة . وكان مركز الحركة في القاهرة ودمشق وفلسطين وبغداد . وكان جعل التعليم العام باللغة العربية الفصحى الحديثة في كل بلاد الشرق الأدنى مما ساعد بطريقة أكثر تحقيقاً للغرض على تقليل المسافات التي تفصل لغة الكتابة عن اللغة الدارجة . وتبين الاحصاءات المدرسية التي نشرت في السنين الأخيرة في مصر وسوريا ولبنان

(١) Op. cit. page 935.

والعراق وفارس أن عدد طلبة المدارس قد ازداد بعد الحرب فى معظم هذه البلاد من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ ./.

وفى ظل هذه الأشكال المختلفة التى تبدو بها حركات الجامعة الاسلامية والجامعة العربية قام عمل متواصل لتعديل الالتزامات المالية والاقتصادية والسياسية التى عقدتها أو فرضتها البلاد الغربية. وهذا التعديل يصعب على الأخص فى بعض البلاد مثل فلسطين حيث يتقابل وجها لوجه العنصران اليهودى والعربى اللذان حررتهما الحرب. ولقد استطاعت الحكومة البريطانية أن تتحاشى حتى الآن (الانفجار القوى الذى كان يحق للمرء أن يخشاه . . . وعلى الرغم من أن اضطرابات أكتوبر عام ١٩٣٣ كانت مما يوجب أشد الأسف فقد تبدو حركة ضئيلة إذا قارناها باتساع مأساة الكفاح بين الصهيونية والقومية العربية)

الاتجاه القومى : والاتجاه الضرورى الآخر الذى يبدو فى البلاد الاسلامية هو الاتجاه القومى، وهو يظهر بشكل أقوى فى أفريقيا الشمالية. والواقع أن (البلاد العربيـة) تفكر تفكيراً غامضاً فى الوحدة، أى فى تحقيق أمة عربية. بينما تجد بلاد أفريقيا الشمالية تظهر الرغبة من تلقاء نفسها ــ كمصر مثلاً ــ فى أن تبقى أمماً مستقلة. والواقع أن حوادث العراق وفلسطين يصل صداها مباشرة إلى دمشق، كما أن اليمن ــ على رغم اختلاف الجو والحياة المادية والعقائد الدينية ــ قد تكون من الناحية السياسية أقل بعداً عن سوريا من بعد مراكش عن الجزائر

أفريقيا الشمالية : إن حوادث أفريقيا الشمالية قليـلة وغير معروفة. وهى بذلك تترك المجال للأقاويل التى تدخلها الأغراض، وللحملات الصحفية التى تصول فيها الشهوات السياسية لأحزاب اليسار واليمين. ولا تزال المعلومات فى الوقت الحاضر سيئة للغاية فيما يتعلق بالاضطرابات التى حدثت أثناء الحرب فى مراكش والجزائر وتونس، ومع ذلك فان مسألة باتنا Batna لا تزال على حرارتها حيث فقد هناك وكيل المديرية حياته

ولتعويض الأعمال المجيدة التى قامت بها الفرق الوطنية فى ساحات القتال أثناء الحرب العظمى منحت حكومة كليمنصو سكان أفريقيا الشمالية وعوداً لم تنفذ لسبب من الأسباب، ولقد اعترف المقيم العام مسيو بيروتون للنائب الاشتراكى مونيه فقال: (الواقع أن من سبقونى قد تركوا الحبل كله على الغارب. ولقد وجدت من اللازم أن يصلح كل شىء من جديد سواء من جهة الخطة السياسية أو من جهة الخطة الاقتصادية)

وقد كان مسيو ب. هيريكور يجمع هذه الشكاوى التى تقول: (ألا تعتقدون أن أولئك الذين هم منا والذين دفعوا ضريبة الدم ليس لهم بعض الحق فى أن يتألموا لكرامتهم حين يرون أنفسهم يعاملون معاملة الأهل الضعفاء وسط الجالية الفرنسية ذات الصدر الواسع بالنسبة للايطاليين والاسبان والمالطيين بل وحتى الألمان ؟)

وبالرغم من اختلاف وجهات نظر الذين ينتقدون السياسة الفرنسية فى شمال أفريقيا فانهم متفقون على أنه ليست هناك وحدة ما فى إدارة الجزائر وتونس ومراكش. ولقد حدثت محاولة واحدة بعد الحرب للوصل بين هذه الادارات، على أنها لم تتلها أخرى. وهذا هو أحد أسباب الضعف الخطير أمام ثورة الجامعة الاسلامية والجامعة العربيـة، ويضاف الى ما سبق أن أعباء دولية تثقل تونس لأن السياسة الايطالية ما تزال على نشاطها، وتثقل مراكش لأن للمصالح البريطانية أهميتها. ومن الآن يظهر أن انجلترا سوف تطلب تعويضاً من مراكش الاسبانيـة عند احتمال تركها لجبل طارق

اضطراب شمال أفريقيا : فى خلال عام ١٩٣٤ قامت فى تونس والجزائر ومراكش سلسلة من الحوادث والاضطرابات والثورات يجد المرء تفصيلاتها فى مجلة (أفريقيا الفرنسية) التى بينت فى عدد سبتمبر أخطاء حكومة الجمهورية بقولها: (عندما تكونت الجبهة المعادية لفرنسا بشكل كتلة عربية، كانت تقابل على الدوام بسياسة تشتيت الجهود والمجاهرة بالعداء للأقاليم الفرنسـية وتصديق الأخبار الكاذبة الخاصة بحالة هذه الأقاليم . . . . إن المسئولية الكبرى فيما يتعلق بحالة القلق فى شمال أفريقيا ترجع الى باريس، فحكومة الجمهورية تغمض عيونها عن المطالب الشرعية التى تقتضيها الحالة الاقتصادية فى شمال أفريقيا، ويجب ألا ننسى أن أفريقيا الشمالية قد أصبحت العنصر الأســاسى فى حياة الجمهورية الاقتصادية)

فى الجزائر : إن الجزائر هى مركز المصالح الفرنسية والنشاط الفرنسى فى شمال أفريقيا. فاذا هدد المركز عُرِّض كل شىء فى تونس ومراكش للخطر. وقد قال أحد العلماء الذين هم على جانب كبير من الخبرة فى هذه المسألة ما يأتى: (إن أهمية الجزائر لفرنسا

أكثر من أهمية الهند لانجلترا ، لكن الواقع أن الهند بالنسبة للامبراطورية البريطانية مصدر قوة ، بينما الجزائر تخلق مشكلة فى نظام فرنسا الداخلى . إن فرنسا بدون الجزائر تصبح من حيث القوة أمة من الدرجة الثانية)

ولقد كانت الحوادث الدموية التى شبت فى قسطنطينية فى الخامس من أغسطس شيئاً جزئياً [1] استغلته الأحزاب السياسية . فصحافة اليسار قالت إنها حركة موجهة ضد اليهود ، بينما اعتبرت صحافة اليمين مرسوم كرميو الذى يمنح عدداً كبيراً من اليهود الجنسية الفرنسية عملاً إجرامياً . والواقع أن مرسوم كرميو لم يقابله المسلمون عند اعلانه مقابلة سيئة . والربا هو إحدى النكبات الكبرى التى تضنى الجزائر ، وهو مهنة نمت على يد اليهود الجزائريين ، ولكنها الآن تسير بنجاح فى شمال أفريقيا بواسطة أفراد ليسوا من اليهود . هذه الضروب المختلفة من الشطط تعرّض للخطر شيئاً فشيئاً أبناء المستعمرات الفرنسية وفرنسا نفسها . وإذا أضفنا إلى ذلك أثر الأزمة الاقتصادية كان لابد لهذه الحالة من أن تنتهى بالمذابح . ومن الغريب أن الحكومة التى من واجبها السهر على النظام والعدالة والرخاء لا تجد إلى الآن وسيلة لوضع نظام للأقراض يضع حداً للسلف الصغيرة التى كانت أول ما اهتمت به الحكومة الانجليزية فى مصر

السياسة البربرية : يعيش فى أفريقيا الشمالية مليون من الفرنسيين لا يمكن أن يتركوا وسط عدد من السكان الوطنيين يبلغ اثنى عشر مليوناً . فيجب أن توجد طريقة للتوفيق بين فريقين مختلفين حتى يستطيعا الحياة . ولقد حاول بعضهم إيجاد سياسة خاصة ببلاد البربر يقصد بها خلق المداوة بين أهل هذه البلاد وبين العرب وذلك عملا بالمبدأ القائل : فرق تسد . وبناء على تقرير مسيو ماسينيون السنوى يوجد ٢٩ ٪ من البربر فى الجزائر ، و ٦٠ ٪ فى مراكش ، و ½ ٪ فى تونس . على أن الاتجاه إلى سياسة بذر الشقاق لم تأت كما سمعنا باحدى النتائج المنتظرة . ولقد كان ظهير عام ١٩٣٠ مبعث الاضطرابات التى انبعثت من ذلك الوقت فى مراكش ؛ ومؤهلات المسلمين فى شمال أفريقيا تحتم أن تكون الثقافة هناك عربية محضة . وعلى ذلك فالقوانين فى بلاد البربر بدائية ، وبعبارة أخرى متأخرة جداً بالنسبة للقوانين فى سائر البلاد الاسلامية ، فالمرأة مثلاً بموجب القوانين فى بلاد البربر سلعة من السلع ، وهى تعتمد على والدها الذى يستطيع أن يبيعها ، وعلى زوجها الذى يملك طردها ، وعلى أشقائها الذين يمكنهم إنزال العقاب بها . لذا كان من الوهم الاعتقاد بأن البربر يستطيعون أن يصبحوا فرنسيين دون أن يصلوا أولاً إلى ما وصل اليه المسلمون . وتطبيق ما يسمى السياسة البربرية لا يمكن أن ينتج غير بقاء الاعتقادات البالية واستمرار العادات الماضية

المعارضة الوطنية : يكاد ينحصر البربر المقيمون بالجزائر فى بلدة قابلية Kabylie . وقد اقترح إنشاء أقليم رابع لهم ، على أن هناك عوائق لابد من انتظار حل لها ، وهى أن التعليم غير كاف ، وسكان المستعمرات لايتعلمون العربية ، كما أن هناك هوة تزداد تدريجياً بين الفرنسيين وأهل البلاد . ولقد كان هؤلاء مخلصين حتى عام ١٩٣٠ وخصوصاً المتعلمون الجزائريون وعددهم ٢٠ ألفاً . ويرى أكفأ الخبراء أن عدم السماح لهم بالتجنس بالجنسية الفرنسية كان خطأ بيناً . ولكن هل هذا صحيح ؟ إننا لا نستطيع أن نعطى رأياً قاطعاً . على أن الواقع أن الاحتفالات بمرور مائة عام على احتلال الجزائر لم تحمل لأهل البلاد إلا خطباً فارغة . ومنذ أربعة أعوام لم يتحقق اصلاح واحد من الاصلاحات التى طلبها أو وعد بها أهل البلاد . ولذا ابتدأت المعارضة وشجعتها الأزمة الاقتصادية . فحمل (الوفد) ، وهو الحزب الوطنى ، إلى باريس شكواه من الحكومة العامة ، وأحيت جمعية العلماء المسلمين الثقافة العربية بين جماهير الشعب . والنتيجة أن سكان المستعمرات تزداد قلقهم تدريجياً ، وأهل البلاد يتفاقم تذمرهم ، والحكومة المركزية لم تصل إلى تسوية الحالة

فى تونس : إن معلومات الصحافة عن الاضطرابات التى قامت فى سبتمبر عام ١٩٣٤ سيئة . وقد شكت مجلة (أفريقيا الفرنسية) من (العقبات التى تصادفها الأخبار الواردة من تونس) فى النصف الأول من شهر سبتمبر . وفى أوائل يونيو أكد البيان الرسمى للجنة المستعمرات فى مجلس النواب أن تونس (تسير فى الطريق السوى) وبعد ذلك بشهر عرف أن الجرائد (الخطرة) قد عطلت ، وأن تذمراً هائلا يسود الموظفين والعمال والفلاحين . وأن السكان الوطنيين محرضون على الامتناع عن دفع الضريبة . ومن الجلى أن المتطرفين من الدستوريين الحديثين يريدون بذلك التغلب على

(١) كان عدد الموتى ٢٤ وبلغت الخسائر ٥٠ مليوناً

الأحرار الدستوريين . وفى ٣ سبتمبر اتخذ المقيم العام عقوبات صارمة . فتكاثرت الحوادث وقامت المظاهرات الصاخبة أمام دار المقيم ، وأغلقت الحوانيت وحدثت الاضرابات ، وهوجمت الفرق الحربيــة وشبت الحرائق . وحدث فى موكنين Moknine حادث خطير نسبياً حيث هاجم الثائرون عساكر البوليس ، فعطلت الجرائد المتطرفة

ولا يكفى أن تلقى تبعة اضطرابات شمال افريقيا على الدعاية الشيوعية . فالواقع أن التذمر العام له أسباب محلية أكثر عمقاً ، هى أسـباب سياسية واقتصادية . لـكن الواضح أن اضطراب البلاد الاقتصادى والفكرى قد استغلته الدعايات الخارجيـة من شيوعية وغيرها . والحقيقة أن المقيم العام فى تونس أعلن فى ١٤ سبتمبر قرارات لغرض تسوية الديون الزراعيـة وتعطيل الاجراءات القضائية ووقف الحجوز . وعُهد إلى خمس لجان تحكيم بحث موقف المدينين المعسرين . وأعظم نقص فى السياسة المتبعة فى تونس أنها تتحول مرة واحدة من لين شديد إلى قسوة شديدة . فهناك يباح كل شطط يرتكبه المرابون ونقابات الموظفين إلى أن يأتى يوم تجد فيه الحكومة نفسها مرغمة على الالتجاء إلى الشدة . وتلك هى السياسة المرتبكة التى مآلها الفشل المظيم

فى مراكش : ومراكش ليست محرومة هى الأخرى من الفضائح ، فهناك حكاية حىّ مراكش المحجوز أو ـ من الناحية الاقتصادية ـ المضاربات على القمح الذى قدر بستة وثلاثين فرنكا ، واشترى بخمسة وعشرين ، ثم بيع ثانية للرباط بمائة وعشرة فرنكات مع كل ضروب المجاملة التى يؤسف لها .

ويظهر أن حكومة المقيم العام قد أخذت تشعر ، ولـكن ـ كما تقول مجلة افريقيا الفرنسية ـ (إذا لم تتحقق هذه الآمال وخصوصاً القضائية والمالية فلا بد من عودة الأيام المسيرة)

النتيجة : والنتيجة أن شمال أفريقيا يعانى نقصا فى وحدة الادارة ، وكذلك يعانى ـ كحكومة الجمهورية ـ نقصاً فى السلطة . وهو يعانى أيضاً من نظام الانتاج والتبادل الذى يرتكز كما هو واضح على مذهب الحرية . والواقع أن تدخل السياسة فى الأعمال ينتج أثرين : يساعد المصالح الخاصة على حساب المجموع ، ويعارض تطور القوانين اللازم منذ الحرب . إن من الواجب وجود توازن بين حقوق حكومة الجمهورية وآمال أهالى البلاد؟ ع . ك

استدراكات وتصويبات

١ — اطلعت فى العدد ٩٦ من « الرسالة الغراء » على مقال البحاث المؤرخ السيد محمد عبد الله عنان عن (الحاكم بأمر الله) فرأيته يسمى صاحب « مرآة الزمان » (ابن قزأوغلى) ، ولعل ذلك تصحيف وقع فى كثير من الكتب ككشف الظنون ، والنجوم الزاهرة ، والأعلام وغيرها ، وصوابه (فرغلى) كما فى نسخة قديمة من الوافى بالوفيات ، ووفيات الأعيان لابن خلكان حيث نص عليه بما يوافق ما قاله الزبيدى فى شرح القاموس ، ويطل بمضهم لصحة (قزأوغلى) بأنه ابن البنت فى اللغة التركية ، وغفل عن أن ابن البنت هو السبط نفسه لا أبوه (فرغلى) ، كما ترى ذلك مبسوطاً فى (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد) فى ترجمة سبط ابن الجوزى يوسف بن فرغلى صاحب مرآة الزمان وغيرها

* * *

٢ — وورد فى العدد نفسه من « الرسالة الجليلة » فى (باب القصص) مقالة فيها « قبرص » بالصاد ، وهو غلط فاش بين الناس غالب على أقلامهم ، وصوابه « قبرس » بالسين كما قيده ياقوت فى معجم البلدان والفيروزابادى فى القاموس وغيرهما

* * *

٣ — وتقدم فى عدد سابق من « الرسالة » أيضاً الكلام على المدرسة (السميساطية) فى دمشق الشام فجاءت محرفة ، وهى تنسب إلى أبى القاسم السميساطى حيث كانت داره فوقفها على فقراء المؤمنين والصوفية ووقف علوها على الجامع الأموى الملاصق لها ، وسميساط بضم السين المهملة الأولى وفتح الميم والسين الثانية بينهما مثناة تحتية وآخره طاء مهملة بلد بالشام . وواقف المدرسة المذكورة كان من أكابر الرؤساء والمحدثين بدمشق ، بارعاً فى الهندسة والهيئة ، صاحب حشمة وثروة واسعة ، عاش ثمانين سنة وتوفى سنة ٤٥٣ كما فى شذرات الذهب ومعجم البلدان وغيرها

أبو أسامة

أبو سليمان الخطّابى

٣١٩ — ٣٨٨ هـ

بقلم برهان الدين محمد الداغستانى

إذا تصفحنا كتب غريب الحديث المؤلفة بعد القرن الرابع الهجرى أو قرأنا شرحاً من شروح كتب الحديث المشهورة ـ وجدنا اسم الخطابى ورأيه بارزين واضحين ، يكفى لمن يريد تأييد رأى على آخر أن ينقل عن الخطابى مايؤيده كما يكفى من يريد الاحتجاج على أمر ما أن يذكر رأى الخطابى فيه حتى يتم له ما أراد

وقد درج الكثير من المؤلفين والرواة عنه على الاكتفاء عند ذكر اسمه بالخطابى ، وسواء أكان اقتصارهم هـذا لشهرته عندهم أم لعدم معرفتهم اسمه الحقيق ، فقد كان سبباً من أسباب الخلاف الطويل حول اسمه الذى سمى به

وقد خدم الخطابى رحمه الله اللغة العربية وعلم الحديث بنوع خاص ـ بما كتبه فى غريب الحـديث وإصلاح خطأ المحدثين وشرحى البخارى وسنن أبى داود ـ خدمة جليلة فوق ما كتبه فى فنون أخرى . حتى لقد أصبحت كتبه من بعده مصادر لمن أتى بعده يأخذ منها ويعتمد عليها ، غير أن أكثر كتبه مفقود الآن لا يعرف غير أسمائها ككثير من كتب الأقدمين من علمائنا الأعلام

وسأحاول ـ بقـدر الامكان ـ أن أصور للقارئ الكريم صورة واضحة جلية لأبى سليمان الخطابى البستى فى هـذه الكلمة الوجيزة

اسمه ومولده ونسبته

هو حمد (بفتح الحاء وسكون الميم) بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب الخطابى البستى ، كذا ذكره النووى فى طبقات الشافعية[1] والحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ[2] وعبـد الجبار الهروى فى

(١) كتاب الطبقات للنووى مختصر من منتخبات الشافعية لابن الصلاح ، مخطوط منه نسختان فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٠٢١) و(٦٢م) تاريخ

(٢) ج ٣ ص ٢٠٩

تاريخ هراة والحاكم ابن البيع فى كتاب نيسابور[1] وابن خلكان فى وفيات الأعيان[2] والسبكى فى طبقات الشافعية[3] وهو الصواب وعليه المعول ، فقد سئل الخطابى نفسه عن اسمه فقال : « اسمى الذى سميت به حمد ولكن الناس كتبوه أحمد فتركته عليـه . »

ووهم الثعالبى فى اليتيمة[4] وأبو عبيـد الهروى صاحب كتاب الغريبين[5] والوزير المؤرخ جمال الدين القفطى[6] فى أنباه الرواة فى أنباه النحاة حيث سموه أحمد

ولد الخطابى فى رجب سـنة تسع عشرة وثلثمائة بمدينـة بُسْت (بضم الباء وسكون السين) وهى من بلاد كابل عاصمة الأفغان ، بين هراة وغزنة ، كثيرة الأشجار والأنهار ، وكما اختلف الذين ترجموا للخطابى فى اسمه كذلك اختلفوا فى نسبته . إلى من هذه النسبة « الخطابى » ؟ فياقوت فى ارشاد الأريب (معجم الأدباء[7]) ، والسيوطى فى بغية الوعاة[8] ، والسمعانى الانساب[9] يذكرون أنه من ذرية زيد بن الخطاب بن نفيل العدوى أخى عمر رضى الله عنه مقتصرين عليه ، بينما ابن خلكان والسبكى والشيخ محمد الأنصارى البهنسى فى الكافى[10] يقولون : إنه منسوب إلى جد أبيه الخطاب ، ثم يقولون : وقيل إنه من ذرية زيد بن الخطاب أخى عمر رضى الله عنه

شيوخه وتلاميذه

تفقه الخطابى على الامام الجليل محمد بن على بن اسماعيل القفال الشاشى الكبير[11] والقاضى الامام أبى على بن أبى هريرة[12]

(١) نقلنا رأى الهروى والحاكم عن ياقوت فى معجم الأدباء

(٢) ج ١ ص ٢٠٨ (٣) ج ٢ ص ٢١٨

(٤) ج ٤ ص ٢٣٢ (٥) رأى الهروى هذا منقول عن معجم الأدباء

(٦) مؤرخ مصرى توفى سنة ٦٤٦ هـ وكتابه المذكور كتاب نفيس فى مجلدين كبيرين ، منه نسختان فى دار الكتب المصرية نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى تحت رقم (٢٠٧٩) وأخرى مخطوطة تحت رقم (٢٨٠١) تاريخ . انظر الجزء الأول منه ص (١٢٣) (٧) ج ٢ ص ٨١ وما بعدها

(٨) ص ٢٣٩ (٩) الورقة (٢٠٢) (١٠) مؤرخ شافعى المذهب ولد سنة ٧٣٦ وتوفى فى حدود ٨٠٠ وكتابه الكافى فى تراجم الشافعية مخطوط فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٩٠م) تاريخ

(١١) كان اماماً فى التفسير ، اماماً فى الحديث ، اماماً فى الكلام ، اماماً فى الأصول ، اماماً فى الفروع ، اماماً فى الزهد والورع ، اماماً فى اللغة والشعر ، ولد سنة ٢٩١ ، وتوفى سنة ٣٦٥ هـ (١٢) أحد عظماء الأصحاب من شيوخ الشافعية ، قال الرافعى : إن ابن أبى هريرة زعيم عظيم للفقهاء ، توفى فى رجب سنة ٣٤٥ هـ

وسمع الحديث من أبي سعيد بن الاعرابي بمكة (١) ، وأبي بكر بن داسة بالبصرة ، واسماعيل الصفار ببغداد (٢) ، وأبي العباس الأصم بنيسابور ، وتأدب وأخذ اللغة عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد اللغوى المعروف بغلام ثعلب (٣) ، وسمع من أحمد بن سليمان النجار ، وأبي عمرو السماك ، ومكرم القاضي ، وجعفر الخلدى ، وأبي جعفر الرزاز وأخذ عنهم

وسمع من الخطابي وروى عنه الامام الفقيه شيخ العراق أحمد ابن محمد بن أحمد الأسفراييني ، والحاكم أبو عبد الله محمد بن البيع النيسابوري ، وأبو عبيد الهروى صاحب كتاب الغريبين ، وعبد الغفار بن محمد الفارسي ، وأبو القاسم عبد الوهاب بن أبي سهل الخطابي ، وأبو نصر محمد بن أحمد البلخي الغزنوى ، وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسي ، وأبو عمرو محمد بن عبد الله الرزجاهي وخلق كثير غيرهم

مكانته العلمية وثناء الناس عليه

كان الخطابي رحمه الله تعالى عالماً أديباً زاهداً ورعاً حسن التدريس والتأليف ، إماماً في اللغة والفقه والحديث ، ثقة متثبتاً من أوعية العلم ، حجة صدوقاً من كبار أئمة الشافعية . رحل في طلب العلم إلى العراق فسمع ببغداد والبصرة والحجاز وجال خراسان وخرج إلى ما وراء النهر ، كريماً يتجر في ماله الحلال وينفق على الصلحاء من إخوانه

قال أبو منصور الثعالبي : كان يشبه في عصرنا بأبي عبيد القاسم بن سلام في عصره (٤) علماً وأدباً وزهداً وورعاً وتدريساً وتأليفاً إلا أنه كان يقول شعراً حسناً وكان أبو عبيد مفحماً

وقال أبو المظفر السمعاني : كان الخطابي حجة صدوقاً رحل إلى العراق والحجاز وجال خراسان وخرج إلى ما وراء النهر ، وكان يتجر في ملكه الحلال وينفق على الصلحاء من إخوانه . وقال أيضاً : كان من العلم بمكان عظيم وهو إمام من أئمة السنة صالح للاقتداء به والاصدار عنه (١)

وقال الذهبي : كان ثقة متثبتاً من أوعية العلم قد أخذ اللغة عن أبي عمر الزاهد ببغداد ، والفقه عن أبي على بن أبي هريرة والقفال ، وله شعر جيد

وقال ابن خلكان . كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة ، وعدد كتبه ثم نقل عبارة الثعالبي المتقدمة

وقال ياقوت : قد أخذ العلم عن كثير من أهله ورحل في طلب الحديث وطوف وألف في فنون من العلم وصنف

وقال النووى في طبقات الشافعية له : حمد بن محمد بن ابراهيم ابن الخطاب الفقيه الأديب أبو سليمان الخطابي البستي صاحب التصانيف المتداولة . قال الحاكم (٢) أبو عبد الله الحافظ النيسابوري أقام عندنا بنيسابور سنين وحدث بها ، وكثرت الفوائد من علومه

وقال الشيخ شرف الدين اليمنى في الكافي : أبو سليمان الخطابي من الأئمة الأعلام المجتهدين في قواعد الأحكام . كان رحمه الله فقيهاً محدثاً أصولياً جمع بين الحديث والفقه ، ومد في تحقيق العلم باعاً مديداً ، وأحكم من مبانيه ركناً شديداً ، حتى قلد أعناق أهل العلم المنن

وأورد النووى في طبقات الشافعية هذه الأبيات الثلاثة :

أخ تباعد عنى شخصه ودنا ... معناه منى فلم يظعن وقد ظعنا
أبا سليمان سر في الأرض أو فأقم ... بحيث شئت دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غيرى فأخشى أن تفارقني ... قد بت روحك بل روحي فأنت أنا

وقال إنها لأبي الفتح على بن محمد البستي قالها في أبي سليمان الخطابي ؛ وياقوت في معجم الأدباء ذكر البيتين الأخيرين هكذا :

أبا سليمان سر في الأرض أو فأقم ... فأنت عندى دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غيرى فأخشى أن تفارقني ... قد بت روحك بل روحي فأنت أنا

وقال إنهما من شعر الثعالبي في الخطابي . والظاهر أن هذه الأبيات من شعر الثعالبي في شيخه وصديقه أبي سليمان ، فقد كانت بينهما صلة وثيقة نلمسها في شعر الخطابي نفسه الذى يقوله في

---

(١) أبو سعيد هذا محدث كبير ولد سنة ٢٤٦ ، وتوفى سنة ٣٤٠ هـ يروى عنه الخطابي من غير واسطة في كتاب العزلة بكثرة ، وهو غير ابن الاعرابي اللغوى الراوية المتوفى بسر من رأى سنة ٢٣٠ هـ فهذا يروى عنه الخطابي بواسطة أبي عمر الزاهد عن ثعلب عن ابن الاعرابي في كتاب اصلاح خطأ المحدثين وغيره مما له مساس باللغة (٢) هو اسماعيل بن محمد ابن اسماعيل بن صالح بن عبد الرحمن الصفار علامة في النحو واللغة ، صحب المبرد وروى عنه ، ولد سنة ٢٤٩ ، وتوفى سنة ٣٤١ هـ

(٣) هو المطرز اللغوى ولد سنة ٢٦١ وتوفى ٣٤٥ ببغداد ، ولكثرة ملازمته لثعلب المتوفى سنة ٢٩١ سمى غلام ثعلب

(٤) كان امام أهل عصره في كل فن من العلم ، فاضلا في دينه وعلمه ، ربانياً مفتناً في القرآن والفقه والأخبار والعربية ، حسن الرواية ، صحيح النقل ، مات بمكة سنة ٢٢٣ ، وقيل ٢٢٤ ، وقيل ٢٣٠ هـ

(١) روى الجزء الأول من كلام السمعاني ياقوت في معجم الأدباء في ترجمة الخطابي وروى السبكي في الطبقات الجزء الثاني نقلا عن كتاب القواطع في الأصول للسمعاني

(٢) أحد تلاميذ الخطابي ومن أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه ولد سنة ٣٢١ ، وتوفى ٤٠٥ هـ

الثعالبي بعد مفارقته ، فقد قال فيه :

قلبي رهين بنيسابور عند أخ ... ما مثله حين يستقرى البلاد أخ
له صحائف أخلاق مهذبة ... منها التقى والنهى والحلم ينتسخ

وفاته ورثاؤه

أكثر الذين أرخوا وفاة الخطابي يؤرخونها سنة ثمان وثمانين وثلثمائة من غير تعيين يوم أو شهر ، إلا أن الذهبي قال ليست فى ربيع الآخر ، والسبكي يقول فى ربيع الآخر من دون تعيين يوم ، وابن خلكان يقول كانت وفاته فى شهر ربيع الأول

وجاء فى معجم الأدباء : نقلت من خط أبي سعيد السمعاني قال نقلت من خط الشيخ ابن عمر توفى الامام أبو سليمان الخطابي ببست فى رباط على شاطئ هندمند يوم السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وثلثمائة ، ومع اختلافهم فى سنة وفاته على ما سبق ذكره فهم متفقون على أنه توفى ببست كما اتفقوا على أنه ولد فيها أيضاً

***

ولما مات الخطابي رثاه تلميذه وصديقه أبو منصور الثعالبي فقال :

انظروا كيف تخمد الأنوار ... انظروا كيف تسقط الأقمار
انظروا هكذا تزول الرواسي ... هكذا فى الثرى تغيض البحار

ورثاه أبو بكر عبد الله بن ابراهيم الحنبلي أيضاً فقال :

وقد كان حمداً كاسمه حمد الورى ... شمائل فيها للثناء ممادح
خلائق ما فيها معاب لعائب ... إذا ذكرت يوماً فهن مدائح
تغمده الله الكريم بعفوه ... ورحمته والله عاف وصافح
ولا زال ريحان الإله وروحه ... قرى روحه ما حن فى الأيك صادح

تآليفه :

ليس الخطابي من المكثرين فى التأليف ولكنه من المجيدين فيما ألف . فمن تآليفه القيمة :

١ ــ « معالم السنن » فى شرح سنن أبي داود[1] شرح فيه غريب اللغة وبين وجوه الأحكام التي تؤخذ من الأحاديث الواردة فى السنن وذكر أقوال العلماء وآراء الفقهاء بلفظ جزل ، وأسلوب سهل ، وعبارة موجزة ، قال فى مقدمته : « ورجوت أن يكون الفقيه إذا ما نظر إلى ما أثبته فى هذا الكتاب من معانى الحديث ونهجته من طرق الفقه المتشعبة عنه دعاه ذلك إلى طلب الحديث وتتبع علمه ، وإذا تأمله صاحب الحديث رغبه فى الفقه وتعلمه »

٢ ــ « غريب الحديث »[1] ذكر فيه مالم يذكره أبو عبيد ولا ابن قتيبة فى كتابيهما وهو كتاب ممتع مفيد ، فى غاية الحسن والبلاغة

(البقية فى العدد القادم) برهان الدين محمد الداغستاني

(١) طبعه أستاذنا العالم الباحث الشيخ محمد راغب الطباخ فى مطبعته العلمية بحلب سنة ١٣٥١ هـ و ١٩٣٢ م معارضاً بعدة نسخ

(١) منه نسخة مخطوطة فى مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب تحت رقم (٢٣٦) ونسخة أخرى فى خزانة المرحوم أحمد تيمور باشا تحت رقم (٧٩) لغة ، تم نسخها سنة ١١٣٠ هـ

٣ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

تمهيد : كان المسلمون حينما ثاروا ثورتهم على بني مروان ينشدون في بني العباس حكماً يعيد لهم عهد الخلفاء الراشدين ، ويكون خليفتهم فيه كأحدهم لا يؤثر نفسه بشيء من أمور الدنيا عليهم ، ولا يأخذ لنفسه من أموال الدولة إلا ما يفرضونه له منها ، كما فرضوا لأبي بكر وغيره ، فلم يحقق لهم بنو العباس كل هذا الرجاء ، بل ظهروا بأبهة الملك التي كان يظاهر بها بنو مروان ، واستأثروا لأنفسهم بأموال الدولة ، وجعلوها ملكاً لهم ينفقون منها في مصالح المسلمين ما تجود به أنفسهم ، وما يبقى بعد حاجاتهم ، وحاجات أهل بطانتهم وحاشيتهم ، وكذا أهل الملق من الشعراء والندماء ومن إليهم ، ولم يحققوا للمسلمين من كل ما أملوه فيهم إلا هذين الأمرين المهمين : المساواة بين الشعوب الاسلامية في حكم الدولة ، وتحضير الدولة الاسلامية بالثقافة العلمية الواسعة التي أحسنوا البلاء فيها

وقد انقسم المسلمون في شأن هذه الدولة بعد قليل من ظهورها إلى قسمين : فتجافاها أهل الورع منهم وأبوا أن يتولوا أعمالها ، وسار معها جمهور المسلمين في ذلك السبيل الذي سارت فيه ، واستولى عليهم اليأس من ذلك المثل الأعلى في الحكم الذي كان على عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، ثم أقبلت الدنيا عليهم فانغمسوا فيها أيما انغماس ، وتفننوا في أنواع التلذذ بها أيما تفنن ، وكادوا ينسون الآخرة كما نسيها من كان قبلهم ، فكانوا في أشد حاجة إلى شاعر ملهم يوقظهم من تلك الغفلة القاتلة ، ويؤدي في الشعر رسالته التي يجب أن يؤديها في كل عصر على الوجه الذي يتطلبها ، وكان لهم ذلك في شاعرنا أبي العتاهية

ولد أبو العتاهية سنة ثلاثين ومائة من الهجرة قبل قيام الدولة العباسية بسنة أو سنتين ، ونشأ بالكوفة ولكن أصله من عين التمر ، وأبو العتاهية لقبه ، واسمه إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد بن كَيسان مولى عنزة ، وكان خالد بن الوليد قد سباه مع جماعة صبيان من أهل عين التمر ، فوجه بهم إلى أبي بكر ، وكانوا أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، ففرقهم في أهل البلاد والأمصار ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم ، فكان لهم أثر صالح في العلم والأدب ، ونبغ من أولادهم جماعة كانوا من أكابر رجال العلم والسياسة والحرب ، مثل موسى بن نصير ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن إسحاق . وكان كيسان جد أبي العتاهية من نصيب عباد بن رفاعة العنزي ، لأنه سمعه حين سأله أبو بكر عن نسبه يذكر له أنه من عنزة ، وكان يكفله في عين التمر قرابة له منهم ، فاستوهبه عباد من أبي بكر ثم أعتقه فتولى عنزة ؛ وكان بنوه يزعمون أنهم منها ويكرهون من ينسبهم إلى النبط الذين كانوا يسكنون عين التمر ، ولكن الظاهر أن أصلهم منهم ، لأنهم كانوا يحترفون بالكوفة من صنعة الجرار ما كانت تأباه فطرتهم لو كانوا عرباً

وقد نشأ أبو العتاهية بالكوفة بين أسرته يعمل الجرار معهم ، ولم يذكر الرواة أنه اشتغل بالتعلم في صغره ، ولكن الظاهر من أمره أنه اشتغل بقدر منه كان له عوناً في الحياة التي آل إليها أخيراً أمره ؛ وكان بالكوفة طائفة من خلعاء الشعراء وأهل المجون والمخنثين ، وناهيك بشاعرها والبة بن الحباب الأسدي وما بلغ إليه في الخلاعة والعبث ، وهو في ذلك أستاذ أبي نواس وغيره ، فاتصل أبو العتاهية بتلك الفئة اللاهية ، وأطلق لنفسه في ذلك عنانها ، فوصل فيه إلى غايته ، وتخنث وحمل زاملة ؛ وأخذ عنهم شعرهم الخليع في التغزل والمجون وما إليهما ، فنبغ فيه ، واشتهر به أمره ، وكان الاحداث والمتأدبون يأتونه وهو جرّار فينشدهم أشعاره ، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه

ثم قصد بغداد في عهد المهدي ليتصل بأمرائها ، ويستفيد بشعره عندهم ، وكان ثالث ثلاثة فتيان شباب أدباء ، ولم يكن لهم ببغداد من يقصدونه ، فنزلوا غرفة بالقرب من الجسر ، وكانوا يبكرون فيجلسون بالمسجد الذي بباب الجسر في كل غداة ، فمرت بهم يوماً امرأة راكبة ، معها خدم سودان ، فقالوا من هذه ؟ قالوا خالصة ، فقال أحدهم : قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعراً فأعانوه عليه ، ثم مرت بهم أخرى راكبة ، معها خدم بيضان ،

فقالوا من هذه ؟ قالوا عُتْبَة ، فقال أبو العتاهية : قد عشقت عتبة ؛ ولم يزالوا كذلك إلى أن التأمت لهما أشعار كثيرة فيهما ، فدفع صاحب خالصة بشعره اليها ، ودفع أبو العتاهية بشعره إلى عتبة ، وألحا فى ذلك إلحاحاً شديداً ، فمرة تقبل أشعارهما ، ومرة يطردان ، إلى أن صح عزم الجاريتين على امتحان عاشقيهما بمال على أن يدعا التعرض لهما ، فان قبلا المال كانا مستأكلين ، وإن لم يقبلاه كانا عاشقين ، وكان لهما معهما شأن فى الحالين . فلما كان الغد مرت خالصة فعرض لها صاحبها ، فقال له الخدم اتبعنا فاتبعهم ؛ ثم مرت عتبة فعرض لها أبو العتاهية ، فقال له الخدم اتبعنا فتبعهم ؛ فمضت به الى منزل خليط لها بزّاز ، فلما جلست دعت به فقالت له : ياهذا إنك شاب وأرى لك أدباً ، وأنا حرمة خليفة ، وقد تأذيتك فان أنت كففت وإلا أنهيت ذلك الى أمير المؤمنين ثم لم آمن عليك . فقال لها : فافعلى بأبى أنت وأمى ، فانك إن سفكت دمى أرحتِنى ، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك إذ لم يكن لى فيك نصيب ، فأما الحبس والحياة ولا أراك فأنت فى حرج من ذلك . فقالت : لاتفعل ياهذا وأبق على نفسك ، وخذ هذه الخمسمائة الدينار واخرج عن هذا البلد . فلما سمع ذكر المال ولى هارباً ، فقالت ردوه ، وألحت عليه فيها فقال : جعلت فداكِ ما أصنع بمَرَض من الدنيا وأنا لا أراكِ ، وإنك لتبطئين يوماً واحداً عن الركوب فتضيق بى الأرض بما رَحُبَتْ . فزادت له فى ذلك الى ألف دينار ، فجاذبها مجاذبة شديدة ، وقال لها : لو أعطيتني جميع مايحويه الخليفة ماكانت لى فيه حاجة ، وأنا لا أراكِ بعد أن أجد السبيل الى رؤيتك . ثم خرج فجاء الغرفة التى كانوا ينزلونها فاذا صاحبه مورَّم الأذنين ، وقد امتحن بمثل محنته ، فلما مدَّ يده الى المال صفعوه ، وحلفت خالصة لئن رأته بعد ذلك لتودعنه الحبس ، فاستشار أبا العتاهية فى المقام فقال له : اخرج وإياك أن تقدر عليك

ثم التقتا فأخبرت كل واحدة صاحبتها الخبر ، وأحمدت عتبة أبا العتاهية ، وصح عندها أنه محب محق . فلما كان بعد أيام دعته إليها وقالت له : بحياتى عليك — إن كنت تمزها — إلا أخذت ما يعطيك الخادم فأصلحت به من شأنك ، فقد غمنى سوء حالك ، فامتنع أبو العتاهية من ذلك ؛ فقالت له : ليس هذا مما تظن ، ولكنى لا أحب أن أراك فى هذا الزى ، فقال لها : لو أمكننى أن ترينى فى زى المهدى لفعلت ذلك ، ثم أقسمت عليه فأخذ الصرة فاذا فيها ثلثمائة دينار ، فاكتسى كسوة حسنة ، واشترى حماراً يركبه ، وحسن بها حاله

وهذه الرواية تعطينا أن أبا العتاهية كان صادقاً فى حب عتبة التى شبب بها فى شعره ، وتوله بها فيه إلى أن أقلع عن ذلك فيما سيأتى من نسكه ، وربما يكون ذلك كله حسن حيلة منه ، وهو ما كان يراه فيه ابنه عتاهية ، وقد روى عنه أن أباه إنما أقبل إلى بغداد ليمدح المهدى ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فلما تطاولت أيامه أحب أن يشهر نفسه بأمر يصل به إليه ، فلما بصر بعتبة راكبة فى جمع من الخدم ، تتصرف فى حوائج الخلافة تعرض لها ، وأمل أن يكون توله بها هو السبب الموصل إلى حاجته ، وانهمك فى التشبيب والتعرض فى كل مكان لها ، والتفرد بذكرها ، وإظهار شدة عشقها ، وكان أول شعر قاله فيها :

راعنى يازيد صوتُ الغراب ... بحذارى للبين من أحبابى
يا بلائى ويا تقلقل أحشا ... ئى وتمشى لطائر نعّاب
أفصح البينُ بالنعيب وما أف ... صح لى فى نعيبه بالاياب
فاستهلت مدامعى جزعاً منـ ... ـه بدمع ينهل بالتسكاب
ومُنعتُ الرقادَ حتى كأنى ... أرمدُ العينِ أوكُحلتُ بصاب
قلت للقلب إذ طوى وصل سعـ ... ـدى لهواه البعيد بالأنساب
أنت مثل الذى يفر من القطـ ... ـر حذار الندى إلى الميزاب

والذى أرجحه من ذلك رأى عتاهية ، لأنه أدرى بأبيه ، ولأن عتبة لم تصدق فى حبه حتى يصدق فى حبها ، وإنما كانت تتخذه للاعلان عنها لتنافس بذلك أترابها من جوارى المهدى ، وقد هم المهدى يوما بعد اتصاله به أن يدفعها اليه فجزعت وقالت : ياأمير المؤمنين : حرمتى وخدمتى ! أتدفعنى الى رجل قبيح المنظر ، بائع جرار ، ومتكسب بالشعر ؟ فأعفاها منه . ولم يكن أبو العتاهية إلا رجلا تاجراً لا يهمه الحب ، وهو لم يقصد بغداد إلا من أجل المال كما سنبينه بعد ؟

عبد المتعال الصعيدى

كلفت فكرك عسرا

للأستاذ فخرى أبو السعود

ماخلت ذا الفكر بالتفكير ينتفع كل المذاهب إن قلبتها شرع[1]
كل له مذهب فى العيش يؤثره ولست تعلم ما الحسنى وما البدع
كلفت فكرك عسراً إن طمحت به
إلى يقين لديه الريب ينقطع
يم الحياة يضل الفكر ملتطم من موجه هائل الأثباج مندفع
تظل فيه وجوه الرأى سابحة حيرى مفرقة من حيث تجتمع
لكم تفكرت فى الدنيا وفى أمم تفرقوا فى فجاج الأرض واصطرعوا
الخير والشر ما قالوا وما فعلوا والنفع والضر ما سنوا وما ابتدعوا
ياهل يراد بهم فى أمرهم رشد ؟ أم هل ترى القوم قد ضلوا بما اتبعوا ؟
فشرد اللب تفكيرى وأجهدنى وما اهتديت لأمر فيه مقتنع
وكلما زدت علما زدت وا أسفى جهلا ، ولم أدر ما آتى وما أدع
فرحت أشكو إلى روض الضحى نصبى
فضمنى منه مرتاد ومنتجع
ومر برد بنان من نسائمه على جبينى فزال الهم والوجع
وقال لى الزهر : ذا عطرى نفحت به
من رام ، ليس على من رام يمتنع
وقال لى النهر : ذا مائى النمير به ان رمت منتقعا للروح منتقع
وقال لى النور : رج الحق فى وضحى
إن النياهب أنى لحت تنقشع
وقال لى الروض : فز بالطيبات ولا تحفل بما قاله قوم وما اشترعوا
إن رمت حقا فهذا الحسن فى كنفى
هو الحقيقة لا ريب ولا خدع
مجدد النسج موصول الحلى أبدا يطيب فى ظله مشتى ومرتبع
وليس يصلحه قوم إذا رشدوا ولن يضيروه إن ضلوا بما صنعوا
يبقى على الدهر مرموق السنى بهجا وتنقضى شيع فى إثرهم شيع

فخرى أبو السعود

(١) شرع : سواء

خواطر فى العلم

للأستاذ محمد الحليوى

العلم أصبح فى أيامنا صنماً وأصبح الجيل من عباد ذا الصنم
دين جديد بدت للعقل آيته فآمن العقل بالآيات والكلم
عصاه بالسحر تنشى العدم معجزة
وتبرئ الصخرة الصماء من صمم
وتجعل الجو طرقا والأثير ستى والنور سحراً وريح اللاذات فم
يريك فى كل آن آية عجباً ويلبس الواقع المشهود بالحلم
ففى الهباءة روح الكون شائقة
وفى القطيرة آزال من النظم
وذرة النور فى إشعاعها أبد وزهرة الحقل لا تخلو من الألم
كم فيه من رحمة عمت مراحمها نعم ! وكم فيه من بلوى ومن نقم
كأنه رب (مانى) ، فى طبيعته تصارعت آية الأنوار والظلم

* * *

العلم لا يرتجى للحق يرفعه كلا ولا هو يهدى النفس للقدس
الغرب فى علمه ساءت خلائقه وبات فى خلقه يمشى الى خنس[1]
الغرب ينعم واللذات ضارية والحس يعرم والأفراح فى عرس
والروح قفر فلا إيمان يعمرها ولا يقين يفيء القلب بالقبس
العلم هدم أوهاماً محببة كانت تفيء لها الأرواح فى الغلس
العلم ! هل طهر الأخلاق فاحترقت
بناره من أصيل اللؤم والدنس
العلم ! هل صد أقواماً ذوى حرس
أن يستطيلوا على قوم بلا حرس
وهل كفى أهله شتى مذاهبهم
وكيف بات بسر الكون فى خرس ؟
كفى هراء فان البحر يدهشنا ونحن لما نزل فى الساحل اليبس

تونس محمد الحليوى

(١) الخنس : التأخر

من مآسى الفيضان فى العراق

الفلاح المنكوب

للأستاذ أنور شاءول

أرأيتَ الحقلَ يُصبي النّاظرين؟ ... أسمعتَ الطّيرَ حولَ الجدولِ ؟
ذاكَ يُحيي السعدَ في القلبِ الحزينْ ... وهيَ تشدو نغماتِ الأملِ

* * *

أنشقتَ الزّهرَ قد فاحَ شذاهْ ... يُترعُ الأرواحَ طيباً مُلهِما
فتُذيعُ الرّيحُ سِرّاً قد طواهْ ... في حناياهُ ولم تفتحْ فما
أوعى الفكرُ حديثاً قد رواهْ ... بُلبُلٌ حُرٌّ أطالَ النَّغما ؟
قِصّةُ الفلّاحِ رَمزِ البائسينْ ... قِصّةٌ تَعصُرُ دمعَ المُقَلِ
سوفَ يَبقى ذِكرُها في كلّ حينْ ... ومكانٍ غَيمةً لا تنجلي !

* * *

قد سَقى الزرعَ صباحاً ومساءْ ... تارةً ماءً وطوراً عَرَقا
رمزُهُ في السّعي جِدٌّ وعَناءْ ... مُنذُ ما الشمسُ تُحيّي المَشرِقا
أسُيولُ الغيثِ أم نارُ ذُكاءْ ... داهَمتهُ ليسَ يَخشى المُلتقى
مُستعيناً ببناتٍ وبنينْ ... وبزوجٍ ذاتِ خُلقٍ أمثلِ
أسرةٌ تحيا بمَسفوحِ الجبينْ ... تَرتجي الخيرَ جزاءَ العملِ

* * *

هُوَ ذا الزرعُ ، وما أوفَرَهُ ! ... يَنبئُ الفلّاحَ بالخيرِ العميمْ
إن تُجِلْ طَرْفاً فأنْ تحصُرَهُ ... أينَ مَنْ يُمكِنُهُ حَصرُ النجومْ
ناضرِ الخُضرةِ ؛ ما أزهَرَهُ ! ... يُطرِقُ الرأسَ إذا هَبَّ نسيمْ
فمتى تُصبحُ يا مَرعى العيونْ ... ذهبيَّ اللونِ زاهي المَخمَلِ ؟
ومتى حَبُّكَ يُهدي الجائعينْ ... خُبزةً تُشبعُ ذا الجوفِ الخلي ؟

* * *

رقدَ الفلّاحُ مَسرورَ الفؤادْ ... حالماً والسّعدُ في أحلامِهِ
يُبصِرُ الآتيَ مُنصاعَ القِيادْ ... ويرى الأيامَ من خُدّامِهِ
لا عناءَ ، لا شقاءَ ، لا سُهادْ ... قلبُهُ حُرِّرَ مِنْ آلامِهِ

يا لأبناءِ الرزايا البائسينْ ... يا لمخدوعي الرُّؤى والأملِ
ما دَرَوا أنَّ الليالي في الكمينْ ... سوفَ تُصليهم بِخَطبٍ جَلَلِ !

* * *

دوّتِ الآفاقُ ليلاً والقِفارْ ... بصُراخٍ رَدّدَتْهُ الصّائحات
« قد طَغى النهرُ ! فيا قومُ البِدارْ . . .
أنقِذوا الأنفسَ . . . صُدّوا النكَباتْ
أنقِذوا النسوةَ والوُلْدَ الصّغارْ ... وشُيوخَ الحيِّ مِن قَبلِ الفَواتْ .. »
جنباتُ الكونِ ضجّت بالرّنين ... فكأنَّ الشُّهبَ حطّتْ مِن عَلِ
وتوالت صعقاتُ الصّاعقين ... يَستحِثّونَ الخُطى في وَجَلِ

* * *

وزها الصّبحُ وفي طلعتِهِ ... تبسمُ الأنوارُ في الأفقِ البعيد
إنّما الفلّاحُ من نَكبتِهِ ... يشتكي للهِ ذي البأسِ الشديد
الأسى والحزنُ في نظرتِهِ ... واللّظى في صدرِه حامي الوُقود
«أين حقلي وحِمَى كوخي الأمين ؟ ... أين زرعي ؟ أين زاهي السُّنبُلِ ؟
قد حواهُ اللُّجُّ مَسدولَ الجفون ... قبلَما لاقى بريقَ المِنجَلِ ! »

* * *

سارَ والأطفالُ نَهْبٌ للبُكاءْ ... وأنينُ الأمِّ مَسموعُ النّغَم
وَدَّ لو عادَ قليلاً للوراءْ ... إنّما هيهاتَ إرجاعُ القَدَمْ
أينَ يأوي ؟ هُوَ ذا قصرُ عَلاءْ ... ظاهِرُ الرّونقِ ، مَلموسُ النِّعَم
« أيُّها السّاكنُ في القصرِ الحصينْ »
هتفَ الفلّاحُ : « هَلْ مِن مَوئِلِ ؟ »
« ليسَ بيتي مَلجأً للشّاردين » ... صرَخَ السّاكنُ في القصرِ العَلي

بغداد

أنور شاءول
المحامى

فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية

١٠ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فلسفة نيتشه Nietysche

١٨٤٤ — ١٩٠٠

للأستاذ خليل هنداوى

« عملت على إيجاز كتاب « فلسفة نيتشه »
للأستاذ (هنرى ليشتانبرجر) »
(خ . ه)

— ١ —

نيتشه هو ممثل الفكرة الألمانية الجبارة فى تاريخها الحديث كما كان « بسمارك » رجلها الحديدى فى السياسة . فهما وإن اختلفت منازعهما وتباينت الحقول التى غرسا فيها ، فما غرس الاثنان إلا بذور القوة والإرادة فى شعب تلقحت دماؤه وأفكاره بمصل القوة والإرادة .

هنالك كلمة تسطرها يراعة الفلاسفة والنقاد وتشغل مكاناً من العصر الحديث . هذه الكلمة هى كلمة « الانحطاط الاجتماعى » وفلاسفة الاجتماع لا يرون فى هذا الانحطاط شيئاً سياسياً يمكن إصلاح الفاسد فيه ، أو اعوجاجاً يمكن تقويمه ، بل هو داء عضال قد تأصل فى جسم البشرية وعشى فى لحمها وعظمها ودمها فهو لا يذهب إلا بذهابها ولا يتلاشى إلا بانقراضها . ومن هؤلاء الغالين فى تشاؤمهم « فردريك نيتشه » الذى نازل العالم كله وحده ، وهدم العقائد والتقاليد مستمداً من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها .

— ٢ —

الشخصية فى نيتشه

إن من الجور أن ننظر فيما ترك نيتشه من تعاليمه « كمذهب محدود » لأن الرجل لم يعمل على أن يؤلف مدرسة فلسفية ، ولم يكن لمثل عقله الوثاب أن يقيد نفسه بقيود ضيقة ؛ وإنما هو الثورة المتدفقة التى لا تعرف نظاماً ولا انتظاماً يملك عليها الاضطراب فى اندلاعها ، ويملك على عقله التناقض حتى فى الفكرة الواحدة . وإنما الأجدر بنا أن ندرس من فلسفته « الناحية الفردية والشخصية » وهى أبرز نواحى فلسفته جلاء وقوة ، لأنها ابنة طبع خاص ، وهوى صادق مستقيم

إن فلسفة « نيتشه » فلسفة تتجلى فيها « الذاتية » المنقطعة عن الناس. « ماذا يقول لك شعورك ؟ يجب أن تكون كما أنت! فينبغى للانسان أن يعرف نفسه وجسده وحواسه ، وأن يعنى بحياته كما تريد ذاته وشخصيته ، وأن ينتهز من الفرص أحسن ما ينتهز ، ومن المصادفات ما يحقق مطامعه ، ويقرب غايته . وأن يصحح – بقدر ما يستطيع – هذه الطبيعة بالفن ، ليتسنى له أن يظهر ذاته ويبعث حياته . كلٌ يغترف من هذا المذهب بحسب غريزته وطبيعته ؛ إذ لا قواعد ولا أساليب محدودة تصنع لكل انسان نفسه . فمذهب « عدم المساواة » بين الناس هو من مبادىء نيتشه . إذ ينبغى لكل إنسان أن يخلق بنفسه حقيقته وهدفه وفضيلته ؛ فما كان صالحاً للواحد قد يكون ضاراً للآخر. وما كان ضاراً للواحد يكون صالحاً للآخر . وكل ما يستطيع المؤرخ أن يصنعه هو أن يقص تاريخ نفسه ، والطريقة التى اكتشف بها نفسه ، والايمان الذى وجد به راحة نفسه . وأن يكون المثال الذى يقتدى به معاصروه للوصول إلى عوالم أنفسهم . . . ولكنه ليس له بعد هذا كله من مذهب أو من طريق . لأنه لا يود أن يكون راعى قطيع خاضع ذليل

(يقول « زرادشت » لرفاقه الامناء : « إننى وحدى أذهب يارفاق ... وأنتم وحدكم اذهبوا ... أنا أريد ذلك

فى الحقيقة أعطيكم هذه النصيحة . ابتعدوا عنى كثيراً ، واحموا أنفسكم من زرادشت ... وخير لكم أن تخجلوا منه

أنتم تقولون : إنكم مؤمنون به ولكن ماذا يهمه إيمانكم ؟ أنتم المؤمنون به ، ولكن ماذا يهمه كل المؤمنين ؟

أنتم لم تفتشوا بعد عن أنفسكم ، ولذلك وجدتمونى . هكذا يقول كل المؤمنين ، ولهذا أرى أن كل إيمان هو شىء ضئيل .

والآن آمركم بأن تفقدونى لتجدوا أنفسكم ، وعندما تكفرون بى أعود اليكم فى تلك الساعة ... »)

يتميز نيتشه من أصحاب المذاهب الفلسفية بأنه لا يخاطب العقل وحده كما يفعلون ، بل يخاطب الانسان بأسره عقلا وجسداً . فما التفكير عنده والعاطفة إلا أهواء تعبث بها قوة خفية كامنة تصرفها كما تشاء إلى أين تشاء . « إن وراء أهوائك وعواطفك – ياأخى – سيداً « قادراً » وعاقلاً مجهولاً يسمى « الذات » يسكن جسدك ، وإنما هو جسدك ، فالجسد بما يضم من أعضاء وبما

يحتوي على إرادة القوة ، ذا ما يدعوه نيتشه « العقـل الـكبير للانسان » وان العقل الحقيق – وحده – ناقص سريع العطب . تستعين به الذات على بسط قوتها ونفوذها . فاذا أراد انسان أن يؤثر فى آخر فبهذه الذات الخفية وحدها يمكنه أن يؤثر . وكل شيء سواها باطل . ومن اللغو أن تعرض مذهباً فلسفياً بالطرق المنطقية ، أو تحدد العقل بالمقاييس التى اخترعها العقل . وإنما هذه الاحكام المنظمة « مجموعة التقاليد المقدسة » محددة الخـير والشر ، والجميل والقبيح ، هى أحكام موضوعة لا ظل لها من حقيقة ، ولـكن الانسان هو واضعها ومقدسها . وخيرهم من ساعد على نشر « ذاته » وشخصيته . فالـكتاب – مثلا – ان هو إلا فعل يقوم بقيـام شخصية صاحبه ، وبكيانه الـكامل . فهو ليس بمفـكر فحسب بل هو نبي ... لا يقول للناس « أنا أحمل اليكم الحقيقة العالمية غير المتعلقة بذاتى . ولـكنه يقول « ها أنا بما فىّ من إيمان وحقيقة وخطأ ، كما أنا . أقول (نعم) للـكون ، لـكل أفراحه وآلامه . فانظروا إن كنتم تجدون أيضاً سعادتكم فى هذه الآراء التى وجدت فيها سعادتى » ، وبينا يروح غيره من الفلاسفة متباهين « بانسلاخهم عن شخصيتهم نرى نيتشه يجعل من شخصيته مدار فلسفته .. فلسفته فى الحقيقة هى تاريخ نفسه . وزرادشت النبي الذى كتب عنه نيتشه بلهجة شعرية مؤثرة هو ذات نيتشه بما يجول فى ذاته من رغائب وآمال وأحلام ومن لم يفهم شخصيته لا يفهم فلسفته

— ٣ —

صفحة من حياته الاولى

ولد نيتشه عام ١٨٤٤ من أسرة يعتقد بأنها أسرة بولونيـة قديمة ألجأها إلى ألمانيا ما ألجأها . نراه فى حداثته مثال السيطرة والاعتماد على الذات وقهر الآلام الجسدية . وقد كان كثير الوفاء والاحترام لأصـدقائه برغم ميله الطبيعى إلى العزلة ، صارماً فى معاملته . لا يميل إلا إلى من يلائم هواه ويوافق مزاجه ولا ينفر إلا ممن طفت الرداءة والشراسة على خلقه . صارم فى حديثه ، جاد فى مزحه . لا يهوى المزح الـكاذب مهما كان عنصره . لأن خروج الرجل عن طبيعته فى الحياة الخاصة يخرجه عنها ما يخرجه فى الحيـــاة العامة . لا يطيب له مجلس العوام ولا الدخول فى حلقاتهم . وإنما هو فى حياته كما تمثله لنا كتاباته إرادة فولاذية وسيطرة بعيدة . وكأنه جُبل من طينة غير الطينة البشرية . لا يهوى الضعف ولا الاستكانة ولا يميل إلى الاستسلام . ولعلّ الـكاتب الداغركى « ابسن » قد رسم شخصية نيتشه فى روايته التمثيلية « الراعى براند » الذى كان رجل كل شيء أو لا شيء . يمشى فى طريقه لا يصده شيء ولا يقفه حائل . لا يشفق على نفسه ولا على غيره . يضحى – بدون وجل – بسعادته فى سبيل تتميم إرادته ؛ يمشى ولا يتسرب اليـه الضعف ، دامى القدم ، محطم القلب . مخترقا سبيله ، بطلاً أبسل فى كل مايخترق . ولا يزال هذا دأبه حتى يربحه الجنون ، وترحمه المنون » مثل نيتشه مثل هذا الراعى رجل كل شيء أو رجل لاشيء . يذهب بارادته لا يصده صادّ ولا يمنعه مانع . وقد تـكون هذه البطولة – عند نيتشه – أحد عوامل سروره . كما يكون الاستشهاد عنـد من يقضى فى سبيل وطنه . على أن هنالك « نفوساً شاذة » فى هـذا المجتمع ، ممن يقدر لها أن تحارب التالم وهى تعلم أن فى هـذه الحرب شقاءها وبلاءها ، تراها مضطرة بطبيعة حالها إلى أن تكون ذات قلب شـديد وارادة فولاذية ، تستعين بها على اقتحام المصاعب ومثل هذه البطولة بطولة المجاهد الذى تتصلب إرادته ، وتتحجر عزيمته

وهو – خلال ذلك – مفتقر إلى صداقة تسعفه وتساعده ، ومن عسى يتخذ صديقاً من بين هذه « المخاليق الناقصة » ولـكنه اتخذ أصدقاء يقبل بكمالهم ويؤمن بمثلهم ويغضى طرفه عن نقصهم ، وقد صور فى مطلع حياته بعض صور أصدقائه تامة كاملة كأنها المثل الأعلى ، وبهذا وجد فى « شوبنهاور » أسمى مثل للفلسفة . وفى « ريشارد فاجنر » أسمى مثل للفن . وإذا هو وجد فى صحبة هؤلاء راحة نفسية فانه وجد فى نهاية هذه الصحبة ألماً طالما أمضه وعذبه . ومبعث هذا الألم أن الفيلسوف ظل ساعياً دائباً وراء الانسان الـكامل الذى يمثله له مثله الأعلى . فـكان – لذلك – فى نزاع مستمر مع نفسه ، وقد كلفته هذه الصداقة كثيراً ، لأن مثله الأعلى يقضى عليه بأن يضحى بها . فجرب كثيراً أن يغض الطرف عن نقص صديقيه ، وألا ينظر فيهما إلا مثلاً أعلى للـكمال الانسانى ، ولـكن إرادته غلبت فى النهاية على الصداقة . فتذوق من الصداقة مرارتها كما تذوق حلاوتها . . . وهكذا آب إلى عزلته لأن طبيعته تدعوه اليها

(يتبع) خليل هنداوى

القَصَصُ

من أساطير الإغريق

بُلُوتو يخطف پِرِسفونيه (١)

أسطورة الربيع

للأستاذ دريني خشبة

كانت ديمتير الطيبة (٢) ، ربة الخيرات ومغدقة البركات ؛ الرحيمة البارة ؛ مُلوِّنةُ الزهر ، ومُنضجة الثمر ؛ واهبة الحقول خضرتها والبساتين نضرتها . . . كانت ديميتر الطيبة تسكن فى قصرٍ منيف يشرف على سهل إنا Enna ، أروع سهول جزيرة صقلية جمالاً وأعذبها ماء وأطيبها هواءً ، وكانت ، حين يتنفس الصبح ، تلبس تاجها اليانع الذى ضفرته من سنابل القمح ، وتتناول باقة من زهرات الخشخاش ريانة ، وتقبض بيمينها على صَوْلجانها المتيد ، المرصع بالزبرجد ، ثم تستوى فى عربتها المطهمة فتنطلق بها الصافنات الجياد تجوب أنحاء الأرض ، وتمر بكل مزرعة ، وتقف عند كل كرمة ؛ تَهب القمح من نفحاتها فيربو ، والثمر من بركاتها فيزكو ، واليَنْع من أنفاسها فيطيب . ثم تعود إذ يجنُّ الليل ، فتهرع إليها ابنتها الصغيرة پرسفونيه فرحة متهللة ، لافة ذراعيها الجميلتين حول ساقىْ أمها ، كأنما تبثهما ما فى قلبها الصغير من لوعةٍ وغليل !

وكانت الفتاة — پرسفونيه — تقضى سحابة النهار ، إلى أن تؤوب أمها ، فى سربٍ من أترابها ، بناتِ الغابِ الحسان ؛ فيظَلَن يقطفن الزهر ، ويجمعن الرياحين ، ثم تنشب بينهن معركة حامية من معارك الطفولة ، وملحمةٌ صاخبةٌ من ملاحم الصبى ؛ فيتراشقْن بالورد ، ويترامين بالزنبق الغض ، ويتضاربن بأفواف السوسن ... وهن فيما بين هذا وذاك يقرقعن بالضحك ، ويتبادلن النُّكات ، ويتغنين الأغاريد ؛ فتستجيب الغابة لهن ، وتترقرق الغدران من تحتهن ، وتهدل الأطيار من فوقهن ، وتمتلىء الدنيا حولهن نشوة وحبوراً

وكأن پلوتو : إله الموتى ، ورب الدار الآخرة ؛ قد ملَّ هذا السكون المخيم فى مملكته تحت الأرض : هيدز ، وسئم هذه الأشباح التى تطيف به هنا وهناك فى الظلمات المحيطة به ، وأرواح الموتى تئن وتتوجع فى كل مكان من ملكه القابض الحزين ؛ فأسرج عربته الضخمة ، وألهب جيادها بسياطه القاسية ، فانطلقت تعدو به إلى : . الدار الأولى . . . هذه الحياة الدنيا ! !



هيـــدز پلوتو

(١ — ٢) پرسفونيه اليونانية هى بروزربين الرومانية ، ربة الربيع . وهى بنت ديميتر ربة القمح والخصب ، ويسميها الرومان سيريز Cérès . وكان هؤلاء يقدسونها ويقدمون لها القرابين من الخنازير خاصة فى عيدها العظيم الذى كانوا يسمونه سيرياليا Cerealia . وكانت لوائح مجلس الشيوخ الرومانى تحفظ عادة فى معبد سيريز . وقد اشتقوا من اسمها اللفظة Cereals للحبوب

خرج بلوتو يروّح عن نفسه ، ويَنْشَق هذا النسيم الحلو الذى يغمر ملكوت أخيه زيوس ، ويروّى روحه الظامئة بالتفرج على عرائس الماء وبنات الغاب ، إذ أَبَيْن جميعاً أن يشاركنه ملكه الرحيب ، ورفضن التزوج منه ، برغم ماأغراهن به من اللآلىء واليواقيت

وفيما هو ينهب الأرض بمربته ، إذا به يسمع فى غَيْضَةٍ قريبة ، ضحكات مُرِنَّة ، وأصواتاً موسيقية مُتقنة ، وأحاديث كأنها دنانير من ذهب فى كف صَيْرَفٍ حذق ! فساقه الفضول إلى استكشاف أولئك الغيد اللائى يتضاحكن هكذا ، كأنما يترنمن بالشدو ، ويُرجِّعْنَ بالغناء ! فَفَرَق العَسَاليج التى كانت تحجبهن ، فرأى البدور البيض يتلاعَبْن على الحشيش الأخضر ، كأنهن نغمات حلوة تنطلق من أوتار أورفيوس !

وجُن جنون بلوتو ! . . . . وأقسم ليخطفن هذه الفتاة الخِدِلَّجة المشوقة ، التى تُدِل على الجميع كأنها فينوس فى دولة الحب ، أو ديانا تخطر بين أماليد !

« إلام أظل فى هذا الديجور الحالك وحدى ؟ ! وحتام أقاسى منفاى السحيق من غير صديق أو رفيق ؟ ! وما قيمة ملكى الشاسع ، وأنهارى الفائرة بالحمم ، مادمت لا سمير لى ولا مؤنس ، إلا زبانيتى وكلابى ؟ وإلا شارون[1] المسخ الكئيب ؟

لقد مللت ! ولا بدلى من هذه الكاعب الحسناء ، والغادة الهيفاء !

إن لها لَفّاً رقيقاً . . . . وإنها لتنثنى كالغصن ، وتخطو كالقطاة !

يا للثديين !

مالها بارزتين هكذا ؟ أتطلبان حضناً قوياً كحضنى ؟ أم علؤها لبن الآلهة ، ورحيق السموات ؟ !

يا للفخذين اللتفّتين الممتلئتين ! !

إنهما مترعتان باللذة ، فياضتان بالاغراء والترغيب ! مالهما تنفجان شهوة هكذا ؟ !

وهاتان حَمَاتا[2] الساقين ! ويلى عليهما وويلى منهما ! !

إنهما حماتان خبيثتان كأبرع ماتنحت يدا فنان ! إنهما تمتلئان لذاذةً ، وتطلقان رُقى السحر فى قلوب الناظرين !

كُوِّرتا تكويراً خفيفاً من فوق ، وانعقد دهاء الفتنة عند التفاف المفصل ، فأفعمهما رغبةً واشتهاءً ! !

وقدماها ! !

يا للكعبين المستديرين ، والجنة النائمة فيهما ! !

والذراعين الناعمتين !

والظهر العاجى الناصع !

والشعر الذهبى الذى يداعبه النسيم كأنه خُصْلَةٌ من ظلال الخلد !

ويلى !

أنا لا أرى إلا هذه الأعضاء السابية ، وأغفل عن هذه الابتسامة التى ترِفُّ حول الفم ! !

إنها أجمل من زهرة التفاح فى أوائل شهر مايو ، وأرق من بتلات أزهار اللوز فى شهر ابريل ! !

تَلَمَّظْ يا فمى فانك ظمىء إلى قبلة تطبعها على هاتين الشفتين الأقحوانيتين !

وسمع إحدى الفتيات تناديها : « برسفونيه ! أنظرى ! هالك بنفسجة حلوة ! »

فتحدث إلى نفسه :

« برسفونيه !

هذه عروس الربيع إذن ! ابنة ديميتير من أخى زيوس !

لقد كبرت وترعرت ، ونهدت ؛ وطابت فى جسمها البض ثمرة الحياة ! !

اغفر لى يا أبى ساترن[1] ! سامحينى يا رها ![2]

سأخطفها ! سأجلسها بجانبى على عرش هيدز ! ستصبح مليكة دار الموتى ! ستنقشع ظلمات ملكوتى بوجهها المشرق الجميل لن أشعر بشقوة ، ولن أحسّ خباءً فى ملكى ! ! إنها

(١) شارون حارس بوابة الجحيم وتوتى أنهارها

(٢) حماة الساق هى ما يطلق العامة عليه بطن الرجل

(١) تزاوجت السماء (أورانوس) والأرض (جى) فأعقبت آلهة كثيرة منها ساترن الذى أعقب بدوره الآلهة زيوس رب الأولب وبلوتو رب الموتى وهستيا رب النار المقدسة وديميتير وحيرا ... الخ ومن أشهر أبنائه بوسيدون رب البحار

(٢) رها زوجة ساترن وأخته

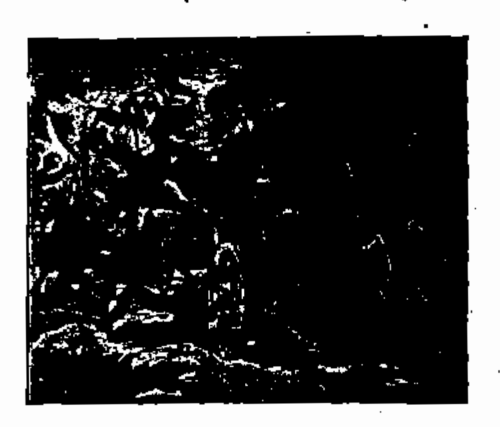
ستكون جوهرة التاج ، وفتنة العرش ، وستسجد الأرواح تحت قدميها المعبودتين ! !

سأترك لها أن تغفر وتثيب ، وسأودع لها مقاليد السُّفْل تصنع فيه ما تشاء ! »

* * *

ثم ألهب جياده فانطلقت نحو الفتيات ، ولشد ما تفزّعن إذ لمحن وجهه الأغبر ، يتدلى عليه شعره الأشعث ؛ والظلال المظلمة تتخايل فوق جسمه الجبار كالسبادير !

ولقد كان كلبه سير بيروس ، ذو الرؤوس الثلاثة ، يلقى الرعب فى القلوب !



اختطاف بلوتو لبرسفونيه

وفر الحسان مذعورات . . . إلا برسفونيه ، فقد قبض بلوتو على ذراعها الرّخْصة ، وجذبها اليه فى العربة ، وذهب يسابق الريح ويلاحق البرق ، حتى اعترضه ماء نافورة أخذ عليه سبيله . وسرعان ما فار الماء كالتنور ، وصار يغلى كالحميم الآن ، حتى خشى بلوتو الجبار أن يعبره ، وأوجس ، إن هو انثنى يبحث عن طريق آخر ، أن يضيع الوقت ، وتفلت الفرصة ، وتروح دعيتير تفتقد ابنتها حتى تستنقذها من يديه . فتناول صولجانه الهائل ، وضرب به الأرض فرجفت وزلزلت ، وانشقت عن أخدود كبير بعيد الغور . . .

وكانت برسفونيه قد أفيقت من هلعها ، فلما رأت النافورة تغلى وتصطخب ، أدركت أن إحدى عرائس الماء قد عرفت من أمرها كل شىء ، وأنها قد تستطيع أن تؤدى لها خدمة فى ذلك المأزق الحرج ، فحلت (برسفونيه) زنّارها الحريرىّ الأبيض ، وألقت به عند ضفاف النافورة عسى أن يصل يوماً الى أمها عن طريق هذه العروس ، فتعلم أين هى ، وماذا تم من أمرها

وانطلق بلوتو فى ظلام الأخدود حتى وصل منه الى مملكته .. هيدز ! فاستوى على عرشه مثلوج الصدر خفاق الفؤاد !

ثم طفق يترضى برسفونيه بشتى الوسائل ، وهى ماتزداد إلا شماساً ونفوراً . . . طاف بها أرجاء مملكته الشاسعة ، وأراها شطئان ستيكس وأشيرون وليث ، وسائر أنهار الجحيم ؛ ثم خاض بها وادى الأفاعى والعقارب ، ومدينة الزنابير واليعاسيب ، والدرك الأسفل من النار حيث يأوى المنافقون والكذابون ، وحديقة الخونة واللصوص ذات الأشجار من لظى ولهب . . . ولم يفقه المُغَفَّل أنه كان يضاعف فزعها أضعافاً مضاعفة كلما مر بها على منظر جديد من ملكه البغيض ! !

* * *

وعادت دعيتير فى المساء ، ولكن برسفونيه لم تهرع لقائها كعادتها ؛ فحسبتها نائمة . . . بيد أنها لم تجدها فى مخدعها ، فافتقدتها فى جميع الغرفات ، ولكن عبثاً حاولت أن تقف لها على أثر ! فاضطربت نفسها بالوساوس ، وخرجت تبحث عنها فى الحديقة ، فلم تجدها كذلك !

ربعت الأم وارتعدت فرائصها ، وانطلقت تعدو وهى تصيح كالمجنونة :

« برسفونيه ! برسفونيه ! أين أنت يا برسفونيه ! » ولكن لسان الصدى ــ إيخو ــ هو وحده الذى كان يردد نداءها . . .

ووصلت إلى ابن أخيها هيفيستيوس [1] إله النار فأعارها شعلة عظيمة تنير لها ظلمات العالم ، ودياجير الليل ، عسى أن تهتدى إلى برسفونيه

جاست خلال الغابات ، واخترقت الأودية ، وفتشت الشطوط ، ونفذت إلى أعماق الكهوف ، وجالت فى مهاوى الجبال ، ورقت إلى شعاف الآكام . . . وبحثت عنها فى جميع الآفاق . . . فلم تعثر بها ! !

استعانت بالآلهة ، واستنجدت بعرائس البحار ، ولكن جهودها ضاعت عبثاً . . .

وجلست دعيتير كاسفة البال ملتاعة القلب ، تعلو جبينها

(١) هوفلكان الرومانى

عبوسة قمطريرة، وتنوء بروحها آلام وأشجان... وأضربت عن الطعام، وآلت لا ينضر حقل ولا يذرُّ نبات، ولا تثمر شجرة، ما دامت ابنتها نائية عنها..! جفت السهول، ويبست سوق الحنطة قبل أن تؤتى أكلها، وخرفت البساتين دون الثمر، فعجف الناس، وضمرت بهيمة الأرض، ونشر الجوع ألوية الخراب في العالمين!!

وانصرف الناس يصلون لزيوس، ويضرعون لديميتير، ولكن الحزن صرفها عنهم، فلم تسمع لصلاتهم ولم تلبِّ نداءهم...

* * *

وفيما كانت تجوب القفار، وتطوى المهامه البيد، إذا بها تصل إلى النافورة التي ألقت عندها برسفونيه بزنارها

وإنها لتجلس عند حفافيها تفكر في أعز البنات، إذا بعروس الماء أريثوذا؛ التي لمحت بلوتو يخطف برسفونيه، والتي أهاجت النافورة لتقطع عليه سبيله، تظهر من الماء بغاة لترى من هذه الجالسة عند دارتها تئن وتتوجع؛ وتعلم أنها الربة ديميتير وأم الفتاة، فتتحدث إليها قائلة: «ديميتير! عزيز علينا أن تجزعي هكذا؟! طيبي نفساً وقري عيناً، فإن بلوتو رب هيدز هو الذي خطف برسفونيه! وهاك زنارها شاهدي على ذلك! ولقد تبعتها إلى الدار الآخرة أحسب أني أستطيع أن أؤدي لها يداً أو معونة ولكن الإله القاسي أغرى بي زبانيته، فانطلقت مذعورة من اللعين ألفيوس..... وعليك أن تخلصي الفتاة فإنها لا تذوق طعاماً، ويكاد الحزن يصمقها برغم أنها أصبحت مليكة دار الفناء....!»



ديميتير تعلم أنباء بنتها من عروس الماء

وتناولت ديميتير زنار ابنتها فعرفته، ثم طفقت تلقيه على عينيها وصدرها... ساكبة دموعها الغوالي!

وقصدت من فورها إلى زيوس فحدثته بما قالت عروس الماء أريثوذا، وأقسمت لديه، إن لم يأمر أخاه برد برسفونيه، لتهلكن عباده جوعاً، ولتجعلن وجه الأرض فدفداً يباباً... لا تسمن بزرع، ولا تروى بضرع!!

فتأثر زيوس من قولها، وابتسم ابتسامة حزينة، ثم قال: «لا بأس من عودة برسفونيه إذن.... ولكن! على شريطة ألا تكون قد ذاقت طعاماً في هيدز، مملكة أخي! فإنها، إن كانت قد فعلت، لا تصلح للحياة في هذا الدار الأولى!»

ولسوء الحظ، كانت برسفونيه، بعد امتناعها عن ذوق شيء من طعام هيدز طوال هذه الأشهر، قد أكلت في نفس ذلك اليوم الذي وعد فيه زيوس بعودتها إلى الدنيا ست حبات من الرمان فحسب! فلما علم زيوس بذلك، عدّل حكمه، فقضى أن تلبث برسفونيه في هيدز عند شقيقه بلوتو ستة أشهر من كل سنة، أي شهراً بكل حبة مما أكلت!! وتعود إلى أمها فتلبث معها ستة أخرى؛ فيعود بعودها النماء إلى الزروع، والازدهار إلى الحدائق، والشبع والثروة إلى الناس، ويكون عودها ربيع الحياة وبهجة الأرض

عاشت برسفونيه ربة الربيع! ولا طال عن الناس مغيبها في هيدز..! عند الشرير بلوتو.... الذي حرم الحياة من أن تكون ربيعاً كلها!!

دريني خشبة

الحرب واقعة

الحرب واقعة ولا بد من الحرب عاجلاً أو آجلاً فأوربا فوق بركان، يعلم الله في أي وقت نسمع الانفجار والنفير العام

أما نحن العرب فالحرب دائمة بيننا ونحن أبناء الحرب وخلقنا للحرب نحمها في سبيل العلم والفضيلة ونحارب الجهل في أقطارنا الشرقية ومدافعنا مطابعنا وسيوفنا أقلامنا وحصوننا مكاتبنا حتى يعلم الغرب أننا نعيد مجد أسلافنا

البريد الأدبي

عيد الأكاديمية الفرنسية

سبق أن تحدثنا عن الظروف التي نشأت فيها الأكاديمية الفرنسية منذ ثلاثة قرون في عهد لويس الثالث عشر ووزيره الكردينال ريشليو، وعما تعتزمه الحكومة الفرنسية والأكاديمية من احياء هذا العيد والاحتفال به. وقد صدر أخيراً أول بيان رسمي عن برنامج هذا الاحتفال؛ وسيبدأ تنفيذه منذ ١٧ يونيه القادم؛ ففي هـــذا اليوم يقام قداس رسمي في كنيسة جامعة السوربون؛ ويفتتح معرض الأكاديمية في المكتبة الوطنية؛ ويستقبل رئيس الجمهورية أعضاء الأكاديمية؛ وفي اليوم الثاني (يوم ١٨)، تعقد جلسة رسمية للأكاديمية في قصر اللوفر في بهو «الكارياتيد»، وتلقى الخطب، وتقام حفلة تمثيلية، ثم تقام مأدبة عشاء يعقبها استقبال في دار البلدية. وفي يوم ١٩، تقام مأدبة للأكاديميين في حدائق شانتيلي، ويزار متحف كوندي؛ وفي يوم ٢٠ منه تعقد الأكاديمية جلسة رسمية في دارها «تحت القبة»؛ ثم تولم في المساء وليمة رسمية كبرى. هـذا وستصدر الأكاديمية بهذه المناسبة كتاباً ذهبياً يشترك فيه كل عضو بكتابة فصل من فصوله، وستقدم نسخة من القاموس الجديد في جلد فخم إلى رئيس الجمهورية «وهو النصير الرسمي» للأكاديمية

ذكرى ألفرد دي موسيه

عنيت جمعية أصدقاء الشاعر الأشهر ألفرد دي موسيه باقامة معرض لكتبه ورسائله وآثاره في السابع من مايو الجاري، وذلك لمناســـبة مرور مائة عام على نظمه «ليالي مايو»، وأقيم هذا المعرض في نفس المنزل الذي كان يعيش فيه دي موسيه حين ألف هذا الكتاب وهو يقع في شارع جرنيل رقم ٥٩. وقد رأت جمعية أصدقاء الشاعر بهذه المناسبة أيضاً أن تصدر كتاباً يحتوي على طائفة من الوثائق والرسائل التي تتعلق بحياة الشاعر ولم تنشر بعد

الفكرة الاشتراكية — شرح جديد لها

صدر أخيراً كتاب عنوانه «الفكرة الاشتراكية» بقلم العلامة الاقتصادي البلجيكي هنري دي مان أحد وزراء بلجيكا اليوم. ولهذا الكتاب أهمية خاصة من الوجهة الاقتصادية والعملية لأن مؤلفه يشترك اليوم في الحكم مع وزارة مسيو فان زيلند التي تحكم البلجيك على قواعد اقتصادية. ونظرية دي مان في الاشتراكية هي أنه يجب التفريق بين الركسية وبين المركسيين (والمركسية هي الاشتراكية طبقاً لمبادىء كارل ماركس)، كما أنه يجب التفريق بين المعارك الحزبية وبين العمل لتغيير المجتمع. وما هي الاشتراكية؟ هي أن يسحق النظام الرأسمالي؟ يجيب هنري دي مان أن نعم وأن لا، ذلك أن الغاية هي أن نجعل الانسان ينعم بقسط أوفر من السعادة، وذلك بتحسين الانتاج، وأن نقلل جهد الاستطاعة من تبديد الجهود البشرية في العمل، وأن نقسم ثمرات الانتاج بطرق أكثر عدالة؛ ومن أجل هذا يرى دي مان أنه يجب تغيير الوسائل الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع الحاضر، وهــذه مسألة في الواقع يكاد يتفق عليها العالم؛ وما يقع اليوم في إيطاليا الفاشستية، وألمانيا الهتلرية، وروسيا السوفيتية، وأمريكا في عهد روزفلت إنما هي محاولات من هذا النوع وفي سبيل نفس الغاية. كذلك تسير الأمم القديمة الحرة إلى تحقيق هذا المثل وإن كانت تسير بطيئة كسير الشيوخ

ويقول مسيو دي مان إن المسألة كلها تتوقف على الوسائل التي تكفل النجاح. ومن رأيه أن الثورة الروسية كانت مخطئة حينما أرادت أن تفهم العالم أن الثورة تنجح بالعنف والسفك، والواقع أن «المركسية» هي التي هزمت سنة ١٩١٧ وليست الرأسمالية، ولم تهزم الرأسمالية إلا فيما بعد، حين بدىء بتطبيق الوسائل والنظريات الاقتصادية الجديدة. بيد أن مسيو دي مان يرى أن أنصار فكرة الاصلاح لقوا نفس الفشل الذي لقيه

أنصار الوسائل الثورية ؛ فني ألمانيا ، وفي إيطاليا وفي غيرهما من الأمم الغربية قد فشلوا ، إما في الوصول إلى الحكم أو في وسائل العمل حين الوصول إلى الحكم كما حدث في فرنسا ، والسبب في ذلك هو أنه في ظل البرلمان وهو نظام رأسمالي ، لا تملك الدولة إلا قوة محدودة ، ولا يتم النصر إلا إذا كان العمل مباشراً سريعاً لا يحد منه شيء

مارك توين لمناسبة عيده المئوي

تحتفل الدوائر الأدبية الأمريكية بذكرى العيد المئوي لمولد الكاتب القصصي الفكه « مارك توين » الذي يعتبر أمير الدعابة والفكاهة في الأدب الأمريكي . ويجب أن نعرف بادىء بدء أن «مارك توين» ليس هو اسم الكاتب الحقيقي ، وإنما هو اسمه القلمي ؛ وأما اسمه فهو صامويل لانجهورن كليمنس ؛ ولد منذ مائة عام (سنة ١٨٣٥) في فلوريدا من أعمال ميسوري (بالولايات المتحدة) من أبوين فقيرين ، وتلقى تربية مدرسية عادية في هذه المدينة ، واضطر منذ حداثته أن يحترف أعمال الطباعة ليكسب قوته ، واشتغل بهذه الحرفة مدى حين في سان لوى وفي نيويورك وفي غيرها من العواصم . وفي سنة ١٨٥١ ، حينما بلغ السادسة عشرة ، ترك أعمال الطباعة واشتغل بحاراً نوتياً في قارب بخاري يعمل في نهر المسيسبي ، وفي أثناء عمله في النهر راقت له صيحة بحرية مما يستعمل حين سبر أغوار الماء : «مارك توين» ، فاتخذها فيما بعد اسما رمزياً للتوقيع على كتاباته . وقد أثارت حياة النهر خياله ، وأمدته بطائفة من التأملات والملاحظات اتخذها فيما بعد مادة لبعض صوره وأقاصيصه ، ولما نشبت الحرب الأهلية الأمريكية ، كان «مارك توين» في نحو السادسة والعشرين من عمره ، فترك حياة النهر ، وذهب الى ولاية نيفادا واشتغل بالصحافة ، وتولى تحرير جريدة « انتربرايز » في ڤرجنيا سيتي . واشتغل في نفس الوقت بهندسة المناجم والقاء المحاضرات . وفي سنة ١٨٦٧ أصدر أول كتبه محتوياً على عدة أقاصيص وصور فكاهيـــة بعنوان « الضفدعة الوثابة » وغيرها ، فلفتت الأنظار بطرافته وخفة روحه وفكاهته الفياضة ، وكان نجاحاً عظيما . وربح مارك توين من كتابه الأول مبلغاً حسناً أنفقه على رحلة الى أوربا ، طاف خلالها ثغور البحر الأبيض ، واتخذها مادة لكتاب أصدره سنة ١٨٦٩ بعنوان « الأبرياء في الخارج » ، فزاد هذا الكتاب في شهرته الأدبية وبالأخص في شهرته كأستاذ للفكاهة والأدب المرح . وفي هذا العام تولى تحرير جريدة جديدة هي « اكسبريس بافالو » ، واستمر في تحريرها مدى عامين . وفي سنة ١٨٧٢ ، أصدر كتابه « كيف تخشن » وفيه صور وملاحظات عن الحياة في الولايات الغربية ، وفي العام التالي أصدر كتاباً بالاشتراك مع صديقه وارنر عنوانه « العهد المذهب » ، وظهرت له بعد ذلك تباعاً عدة قصص ومجموعات نقدية وقصصية نذكر منها « سائل في الخارج » (١٨٨٠) ، « الأمير والحقير » (١٨٨٢) « الحياة في نهر المسيسبي» (١٨٨٣) «مخاطرات هكابري فن» (١٨٨٥) «الورقة ذات المليون جنيه» (١٨٩٣) « مأساة بدهد ولسون » (١٨٩٤) « ذكريات جان دارك » (٩٦) « سائلون آخرون في الخارج » (٩٧) « الرجل الذي أفسد هدلبرج » (١٩٠٠) «مذكرات ايف» (١٩٠٦) «السلم المسيحي» (١٩٠٧) وغيرها

ومما يذكر في حياة مارك توين أنه في سنة ١٨٨٤ اشترك مع صديقه تشارلس وبستر وشركائه في إنشاء دار نشر كبيرة ، وازدهرت أعمال الشركة بادىء بدء ، ولكنها ساءت بعد ذلك وأفلست سنة ١٨٩٥ ، وتحمل مارك توين بسبب هذه النكبة أعباء مالية فادحة ، ولم ير مارك توين وسيلة للاقالة من هذه العثرة سوى الطواف حول العالم والقاء المحاضرات الفكهة . وقد نجحت رحلته نجاحاً عظيما وجمع مبلغاً كبيراً من المال ، واستطاع أن يسدد ديونه . وكان مثله في ذلك مثل الكاتب الفرنسي بلزاك الذي أراد أن يحقق الغنى من الاشتغال بنشر الكتب فباء بالخسارة والافلاس

ومن ذلك الحين كان مارك توين يقضي معظم أوقاته في أوربا ، وفي سنة ١٩٠١ عاد الى الولايات المتحدة وتابع الكتابة ، وفي سنة ١٩٠٧ زار انكلترا فاستقبل بحماسة عظيمة ، وأنعم عليه بدرجة فخرية من جامعة أكسفورد . وتوفي في سنة ١٩١٠ في الخامسة والسبعين

ومارك توين من أقطاب الأدب الفكه ، وهو أستاذ هذا الفن في الأدب الأمريكي ، كما أن جورج كورتلين هو أستاذ هذا الفن في الأدب الفرنسي ، وفكاهة مارك توين مرسلة ليس فيها تكلف ، وقد تكون أحياناً خشنة يطبعها الاغراق ، ولكنها على أي حال ممتعة مؤثرة ؛ وأحياناً تبدو دقيقة تقوم على بعض المبادىء الجدية . وما زال تراث مارك توين فريداً في الأدب الأمريكي

تكريم الدكتور محمد حسين هيكل بك

في مساء الأربعاء الماضي أقامت لجنة ممتازة رئيسها الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية، حفلة تكريمية في فندق الكونتننتال، للأستاذ الكاتب النابغ محمد حسين هيكل بك، بمناسبة إصداره كتابه القيم (حياة محمد)، شهدها صفوة متخيرة من رجال الفكر، وتكلم فيها نخبة متميزة من رجال البيان، وكان الكلام الجاهر على المنصة، والحديث الخافت حول الموائد، يدور على هذا الجهاد المنصور المبرور الذي جاهده الأستاذ هيكل في الأدب والسياسة هذه الحقبة الطويلة. والأستاذ هيكل أحد الأساطين الرواسي التي قام عليها أدبنا الحديث ما في ذلك خلاف؛ توفر بحكم دراسته على الثقافة الغربية، ومال بحكم قراءته إلى الآداب الفرنسية، وتعصب بحكم مصريته للفنون الفرعونية، وهو كاتب بالاستعداد، فنان بالفطرة، فلا بد أن يكتب، ولابد أن يكتب بالعربية؛ والعربية لم يعطها بعد نصيباً جدياً من ذكائه، فظهر في الثمرات الأولى ضعف الائتلاف بين المعنى القوي والتفكير المهذب، وبين اللفظ الضعيف والأسلوب المهمل، ولكن النفوس الفنية تهتدي بغرائزها إلى الطريق، وتسير وراء إحساسها إلى القاعدة، فلم يلبث الأستاذ هيكل أن فرض أسلوبه الفني بالصور، وأدبه القوي بالمنطق، على أبناء الأدب العربي؛ ولم يلبث الدكتور هيكل الذي خضع لأثر الفرنسية والفرعونية وبدأ (بزينب)، أن يسمو إلى العربية والاسلامية وينتهي (بحياة محمد)!

فوز مبين للاسلام والعرب والشرق أن يصدر عن الأستاذ هيكل هذا الكتاب الروحي الخالد! فهو يدل فيما يدل على أن أدبنا الأصيل العريق أخذ يرتد إلى منبعه، ويستمد من وحيه، ويتمتع باستقلاله. والاحتفال بالدكتور هيكل هو احتفال ضمني بهذا التطور الأصيل المحمود الذي سما بالفكر المصري الى رتبة الخلق، وبالأدب العربي الى مقام الاصالة

من رونسار الى بودلير

صدر أخيراً في باريس كتاب عنوانه «من رونسار الى بودلير» بقلم مسيو فرنان فليريه، ورونسار هو شاعر فرنسا الأكبر في القرن السادس عشر؛ وبودلير هو شاعرها الأكبر في القرن التاسع عشر. وقد تناول مسيو فليريه في كتابه تطور الشعر الفرنسي؛ وحياة أقطابه منذ القرن السادس عشر؛ وتحدث عن الأساليب الأدبية التي توالت على الأدب الفرنسي في هذه العصور؛ وخص الأسلوب التهكمي منها بفصل بديع. ومسيو فليريه ناقد قدير؛ وقد سبق أن نشر معظم فصول كتابه في بعض الصحف والمجلات الأدبية فأثارت تقديراً واهتماماً

وفاة كاتب روماني

من أنباء بوخارست أن الكاتب الشاعر الروماني الشهير بنايت استراتي قد توفي في سن الحادية والخمسين بعد مرض طويل. وقد بدأ هذا الكاتب حياته العامة عاملاً؛ ولكنه ظهر مواهبه الفكرية، وجذبه المترك السياسي منذ حداثته، فكان زعيم حركة اشتراكية قوية. ولما أعلنت الحرب الكبرى هاجر إلى سويسرا اتقاء الاضطهاد، وهنالك كتب عدة قصص قيمة؛ منها: «العم انجل» و «كيرالينا»؛ ولفتت قصصه أنظار الدوائر الأدبية، ولا سيما الدوائر الفرنسية؛ وترجمت إلى معظم اللغات، ووصفه الكاتب الفرنسي رومان رولان بأنه «جوركي البلقان»

وبعد الحرب زار استراتي روسيا السوفيتية ليدرس التجربة الاشتراكية، ولكن عاد بخيبة أمل، وانهارت عقيدته الاشتراكية، وتحول إلى مبادىء الوطنية البورجوازية (الرأسمالية) وكان في أعوامه الأخيرة يشترك في المترك السياسي بحماسة ونشاط، وكان يقارع خصومه السياسيين بحملات صحفية شديدة كانت تثير كثيراً من الجدل والاضطراب

العيد المئوي لبلليني

من الأعياد الفنية الشهيرة التي تتأهب إيطاليا للاحتفال بها بعد بضعة أشهر؛ العيد المئوي لوفاة الفنان المؤلف الموسيقي الأشهر فنشنزو بلليني الذي توفي شاباً في عنفوان فتوته وفنه منذ مائة عام. وقد ولد هذا الفنان البارع في مدينة قطانية من أعمال صقلية في أواخر سنة ١٨٠١؛ وكان أبوه معلماً للموسيقى. فنشأ الطفل موهوبا في الفن. وأخذ يؤلف القطع الموسيقية منذ السادسة من عمره. وفي سن الثانية عشرة ذهب الى نابولي والتحق



قصة الفلسفة اليونانية

تصنيف الأستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود

للدكتور عبد الوهاب عزام

أستاذنا أحمد الأمين رجل بارك الله عليه ، فرزقه من الفكر السليم ، والعلم الواسع ، والدأب على الأعمال وتأديتها في أوقاتها ، وترتيبها ما أتاح الله للتأليف القيم النافع . فأخرج للناس في بضع سنين كتابيه فجر الاسلام وضحى الاسلام

والأستاذ منذ عهد بعيد معني بالفلسفة ، ترجم في مبادئها كتاباً عن الانجليزية ، قبل خمسة عشر عاماً ، ودرس نواحي منها في درسه علم الأخلاق والتأليف فيه . وقد أحسّ ، وهو يؤلف ضحى الاسلام ، حاجة الى الاستزادة من الفلسفة اليونانية ليستعين بها على فهم الفلسفة الاسلامية . يقول الأستاذ : « حتى إذا عرضت لوصف الحياة العقلية عند العرب وألفت في ذلك فجر الاسلام وضحاه ، ووصلت في التأليف إلى المنزلة والمتكلمين في العصر العباسي ، رأيت أنهم تعرضوا لمسائل هي من صميم الفلسفة اليونانية ، ورأيت أن لابد لفهمها من الرجوع إلى منابعها لأعرف كيف فهموها وكيف نقلوها وما الذي زادوا عليها ، فاضطررت إلى العودة إلى كتب الفلسفة أستعرض مسائلها ، وأتفهم غوامضها الخ »

قرأ الأستاذ ودوّن خلاصة ما قرأ ، فأخرج بمعونة شريكه الكتاب الذي سماه « قصة الفلسفة اليونانية » . يقول الأستاذ :

« فلما عاودت القراءة في الفلسفة بدت مني رغبة في أن أكتب خلاصة ما أقرأ فذلك أدعى إلى وضوح الفكرة في ذهني ، وإلى أن ينتفع بما انتفعت به غيري . وكان من حسن حظي أن رأيت أخي وزميلي الأستاذ زكي نجيب محمود يرغب رغبتي ويتمنى أمنيتي ، فتعاونا معاً على اخراج هذا الكتاب وتقديمه للقراء »

— ٢ —

وكنت وعدت أن أكتب في مجلة الرسالة عن « ضحى

بمعهدها الفني ؛ وكان أستاذه هنالك تسنجاريللي المؤلف الموسيقي المشهور وملحن رواية « روميو وجولييت » . ولم تمض بضعة أشهر حتى وضع الطالب بلليني أول « أوبراته » وعنوانها « أدلسون وسالفيني » ، ومثلت في قاعة المعهد فنالت نجاحاً عظيماً حتى أنها كانت تمثل كل يوم أحد . ولما رأى الفتى نجاحه السريع وضع قطعة أخرى عنوانها « بيانكا وفرناندو » ، ومثلت في مسرح سان كارلو ، فنالت نجاحاً أعظم ، وذاع صيت الفتى الفنان حتى أن دومنيكو بارباجا أعظم مخرجي العصر دعاه إلى وضع قطعة جديدة تمثل في مسرح « سكالا » بميلانو ، وهو أعظم مسارح إيطاليا يومئذ ؛ فسافر بلليني إلى ميلانو ووضع قطعته الشهيرة « القرصان » (سنة ١٨٢٧) ، فكان ظفره بتمثيلها عظيماً ، وارتفع في الحال إلى صف أعظم فناني العصر ؛ وأتبعها بقطعة جديدة عنوانها « الأجنبية » ثم بأخرى عنوانها « جوالة الليل » ثم « نورما » وهي قطعة موسيقية بلغ بها ذروة مجده ، وبعدئذ وضع بلليني قطعاً خاصة لمسارح إيطاليا الشهيرة في البندقية ونابولي وغيرها ، ثم سافر إلى باريس ووضع هنالك قطعة « البوريتانيين » فنالت نجاحاً عظيماً ، ولكن المرض كان قد أخذ يسري إلى الفنان الفتى وأخذت صحته تسوء بسرعة ؛ ولم يلبث أن توفي في باريس في سبتمبر سنة ١٨٣٥ ودفن بمقبرة « بيرلاشيز » ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى مسقط رأسه « قطانية » سنة ١٨٧٦

وقد احتفلت الأوبرا النمسوية (بمدينة ڤينا) بذكرى بلليني احتفالاً خاصاً مؤثراً ، فأحيت ذكرى روايته « جوالة الليل » بتمثيلها مدى أسبوع لأنها في هذا الشهر شهر مايو مثلت بالأوبرا النمسوية منذ مائة عام

الاسلام » ، وحالت حوائل دون المبادرة بإنجاز الوعد ؛ ثم تيسر لى الفراغ لكتابة المقال الأول ، وبينا أنا فى شغل به مررت على لجنة التأليف والترجمة والنشر فأخذت الكتاب الجديد « قصة الفلسفة اليونانية » . ولما أخذت مكانى فى قطار حلوان فتحت الكتاب لأقرأ مقدمته وفهرسه ، ثم أطبقه إلى أن تتاح فرصة لقراءته . فلما قرأت المقدمة شاقنى ما بعدها ، وقادنى حسن البيان ، وسلاسة العبارة ، وسهولة الشرح من صفحة إلى أخرى حتى عبرت من الكتاب صفحات كثيرة ، فآثرت أن أتمه ، وبدا لى أن أكتب عنه إذا أتممته ، ناقداً حاسباً ما للكتاب وما عليه . فلما انتهت بى القراءة إلى فصل سقراط قلت : هنا فاصلة يحسن الوقوف عندها فقد كان سقراط فصلاً فى تاريخ الفلسفة تغيرت به سيرتها ، فوقفت القراءة لأكتب عما قرأت ، وأجعل بقية الكتاب موضوع مقال آخر . وهكذا يأبى الأستاذ أحمد الأمين إلا أن يعمل ويشغلنا بعمله عن أعمالنا

— ٢ —

أراد المصنفان أن يعرضا على القارىء العربى الذى لا علم له بالفلسفة اليونانية قصة هذه الفلسفة فى نشأتها وتطورها فى إيجاز وإيضاح ، وتسهيل وتيسير ، وبُعد عن التعمق والتفصيل ، والتقصى فى البحث . وقد تسنى لهما ما أرادا فجاء الكتاب كما ابتغيا « قصة » يسيرة شائقة ، كفيلة بتقريب الفلسفة اليونانية إلى المبتدئين . ولا يحتاج الناقد إلى تبيين هذا ، فكل صفحة فى الكتاب شاهدة به . يبدأ المصنفان كل فصل ببيان ما يريدان ، حتى إذا بلغا ما أرادا أجملا ما قدّما ، فاذا بدأ الفصل التالى ذكّرا القارىء بما قدّماه . حتى إذا جاوزا عهداً من عهود الفلسفة إلى عهد آخر وقفا بالقارىء يلفتانه إلى ما أوضحا من قبل ليتعرف فرق ما بينه وبين ما يستقبله فى العهد التالى ، وهلم جرا

وقد قرأت ما قرأت من الكتاب مثنياً على المصنفين مسروراً راضياً إلا هنات يسيرة أعدّ منها ما يلى :

١ — قال المصنفان إن من الفروق بين العلم والفلسفة أن كل علم يبحث فى ظواهر محدودة من العالم ، وأن الفلسفة تحاول النفاذ إلى بواطن الأشياء كلها واستكناه حقائقها . وقد أوضحا هذا إيضاحاً حسناً وساقا الأمثلة ، ولكن فرطت فى أثناء ذلك عبارات تثبت أن العلوم تقنع بالظن وأن الفلسفة لا تقف دون اليقين . فقالا فى صفحة ١٠ : « ولكن هذا الذى أقنع العلم لن يرضى الفلسفة . هى لا تطمئن إلى هذا الركون والركود ، ولا تستقر إلا إذا وجدت لكل ظاهرة ما يؤيدها تأييداً تاماً . » وقالا فى صفحة ١٣ : « وهى (الفلسفة) لا تجيز لنفسها أن تركن إلى حكم من الأحكام بالغاً ما بلغ من القوة والذيوع إلا إذا أيده الدليل القاطع » وفى الصفحة نفسها : « كذلك لا ترضى الفلسفة أن تسلم بصحة مبدأ أو فكرة إلا إذا ثبتت لديها ثبوتاً لا يدع مجالاً للريب والشك . فهاتان صفتان تستطيع بهما أن تفرق بين العلم والفلسفة : »

وهذا كلام يُفهم القارىء أن الفلسفة قائمة على اليقينيات وأن العلوم قائمة على الظنيات ، والمعروف غير هذا . فقد كانت الفلسفة نظراً عاماً فى الكون ظاهره وباطنه ، ثم تحددت مواضع النظر وأدرك الباحثون قوانين فى العالم نشأت بها العلوم المختلفة يؤيدها التجربة والاستقراء والبرهان العقلى . وكلما خرجت طائفة من ظواهر الكون من الحدس إلى اليقين خرجت من حضانة الفلسفة حتى لم يبق للفلسفة فى العصر الحاضر إلا موضوعات لم تحط بها التجارب ولم تضبطها البراهين وهى ماوراء الطبيعة ، والنفس ، والأخلاق ، والمنطق ، والجمال الخ

نحن نعترف بأن العلم لا يبحث فى حقيقة موضوعه ولكن فى خصائصه . فهو لا يبالى بحقيقة الزمان والمكان والمادة ، بل يبحث فى خصائصها ومظاهرها ، ولكن هذا لا يستلزم أن تكون العلوم ظنية والفلسفة يقينية ، بل مجال الظن والفرض أوسع فى الفلسفة منه فى العلم . وقصارى القول أنه ينبغى التفريق بين غاية العلم والفلسفة ومباحثهما ، فغاية العلم بحث الظواهر ولكن مباحثه قائمة على الحس والتجربة ، وغاية الفلسفة النفاذ إلى حقائق الأشياء ولكن مباحثها مليئة بالحدس والظن

٢ — أين بدأت الفلسفة ؟

قال المصنفان تحت هذا العنوان : « لعلك الآن فى ضوء هذا

التحليل الذى تقدمنا به اليك تدرك معنا أن هذا الضرب من التفكير الذى يحاول أن يوحد بين ظواهر الكون المتنافرة والذى يرفض التسليم الساذج رفضاً تاماً ، والذى يسمو بالعقل فوق المستوى المادى من حيث أسلوب التفكير وصور الفكر — نقول لعلك تذهب إلى ماذهبنا اليه من أن هذا التفكير الفلسفى الصحيح لم ينشأ ولم يتم إلا عند شعب واحد دون الشعوب القديمة جميعاً هم اليونان القدماء : »

وقالا فى الصفحة ١٦ : « لم تستمد الفلسفة اليونانية أصولها من تلك الأمم القديمة ولكن خلقها اليونان خلقاً وأنشأوها إنشاء . فهى وليدتهم وربيبتهم ليس فى ذلك ريب ولا شك : »

فأما ادعاء أن الفلسفة على هذا النحو لم تنشأ إلا عند اليونان فهو مجازفة . ولو اطلعا على فلسفة الهند مثلاً لاقتصدا فى هذه الدعوى . ولعلهما يسمعان عما قليل بقصة الفلسفة الشرقية كما أسمعا الناس قصة الفلسفة اليونانية . وقد ذكرا فى أول الفصل الثانى أن فيثاغورس رحل إلى مصر وبلاد الشرق ، وقالا فى آخره : « وأنت ترى من ذلك أنهم (الفيثاغوريين) خطوا بالفلسفة خطوة جديدة نحو التفكير المجرد ، فبدأت الفلسفة منذ ذلك الحين تتحلل بعض الشىء من تلك النزعة الطبيعية التى سادت عند فلاسفة يونيا لتستقبل صبغة جديدة — هى صبغة الفلسفة فى أصح معانيها — أعنى التفكير المحض فيما وراء الطبيعة وظواهرها . الخ » وقالا فى الفصل السادس إن ديمقريطس « كان واسع العلم ، راغباً فى تحصيله رغبة حارة . . . . . وقد حفزته تلك الرغبة الملحّة فى التحصيل إلى الرحلة فى أقطار الأرض ، فزار مصر وجاس خلالها ، وعرّج على بابل وطوّف فى أنحائها . » فان يكن فيثاغورس الذى تعلم فى مصر ورحل إلى الشرق قد نحا فى الفلسفة نحواً جديداً ، وارتقى بها إلى التفكير المجرد الذى هو أقرب إلى الشرقيين ، فلِمَ نجزم جزماً أن فلاسفة اليونان لم يستمدوا قطُ من الأمم الأخرى ؟ وإن يكن ديمقريطيس وهو امام مذهب فى الفلسفة رحل إلى مصر وبابل فى طلب العلم فكيف نجزم بأن اليونان لم يأخذوا عنهم « ليس فى ذلك ريب ولا شك »

٣ — وقالا ص ٣٣ أثناء الكلام على آراء الفيثاغوريين : « أى انك تستطيع أن تتخيل فى غير عسر كوناً يخلو من اللون والطعم والحرارة » . وقد جهدت أن أتخيل عالماً لا لون له فلم يتيسر لى

٤ — فى الكلام على هرقليطس ص ٥٦ « بعد أن عمر نحو ستين عاماً كان فيها معاصراً لبارمنيدز . » والعبارة توهم أنه عاصر بارمينيدز ستين عاماً ، وليس هذا مقصوداً كما يعرف من تاريخ الرجلين

٥ — فى الكلام على السوفسطائيين ص ٩٩ : « ومن أجل ذلك سمى اللعب بالألفاظ والتهريج فى الحجج سفسطة اشتقاقاً من السوفسطائيين . » وكان ينبغى هنا تفسير كلة سوفسطائى فى وضعها الأصلى حتى لا يتوهم القارئ أن فيها معنى السفسطة المعروف

٦ — تكلم المصنفان على الأحوال السياسية والاجتماعية فى بلاد اليونان عند ظهور السوفسطائيين ليبينا أثرها فى فلسفتهم ، ولم يذكرا آثار الحروب الفارسية المادية ، وكانت ذات أثر بليغ فى اليونان

وهناك هنات لفظية كثيرة تركها حتى نفرغ من نقد الآراء والمعانى